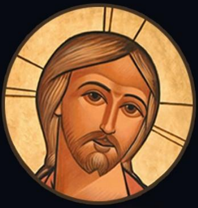

كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس
سبورتنج - الإسكندرية

مذكرات السجن

للقمّص لوقا سيداروس

اسم الكتـــاب: مذكرات السجن.

الناشـــــــر: كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس سبورتنج.

إعــــــداد: القمص لوقا سيداروس.

الطبعــــــة: الأولى - نوفمبر ٢٠٢٠

المطبـــــعة: دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط.

الترقيـم الدولي: ISBN: 978-1-63684-884-6

حضرة صاحب القداسة والغبطة

البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية ال ١١٨

المقدمة

تقدمات مقبولة للعبور إلى الفردوس

بعبور أبينا المحبوب القمص لوقا سيداروس من العالم الفاني إلى الفردوس، نشعر أنّ حياته كانت فُرَصًا رائعة لتقديم تقدمات مُقَدّسة تُعتبر كَفِلسيّ الأرملة، وقَرَعات صدر العشّار، وذبائح الشكر للمرنمين، نذكُر منها:

عندما وهَبَهُ الله الطفل الرضيع أرساني، سُئلَ: «هل ميلاد أرساني سحب من وقت خدمتك لله؟» فأجاب: «طبعًا عليّ التزام نحو ابني الصغير،لكن بمجيئه أدركت مدى عذوبة أبوّة الله لي. إن كنتُ أسعدُ بأبوّتي لهذا الرضيع، فكم بالأكثر يهتمّ الله كلّيّ الحبّ بإعلان أبوّته؟!»

عندما سمح الله له بالسجن في أيام الرئيس أنور السادات، أعطاه الله نعمة في أعين جميع زملائه من أساقفة وكهنة وعلمانيّين. يكفي ما قاله الأستاذ عادل بسطوروس وهو مريض: «كفاية يا أبانا، لأنّ الضحك والفرح الذي مارسته في هذا السجن، أكثر بكثير مِمّا مارسته في كلّ حياتي!»

جاءت فرصة مرضه الأخير، التي استمرّت حوالي سنة ونصف، سِرّ بركة وتوبة ونمو لحياة الكثيرين، خلال احتماله آلام مرض السرطان بشكر دائم.

حياته سلسلة مستمرة من فُرَص لتقديم تقدمات مقبولة لله. بالحقّ انطبق عليه قول الرسول: «كلّ الأمور تعمل معًا للخير للذين يحبّونه.»

يحوي هذا الكتاب بعض المذكّرات الشخصيّة، التي كتبها أبونا لوقا عن الفترة التي نال فيها بركة السجن، من أجل المسيح.. في هذه المذكّرات الشيّقة، يعرِض العديد من القصص والأحداث التفصيليّة التي ظهر فيها عمل الله بقوّة، منذ ليلة القبض عليه، حتّى خروجه من السجن.. مع أحاديث روحيّة جميلة عن بعض الشخصيّات التي قابلها أثناء فترة التحفُّظ، والكثير من المواقف الطريفة التي عايشها معهم.. بالإضافة إلى ملاحظاته ووصفه الدقيق للحياة داخل الأسوار، وكيف أنّ الله كان يتمجّد مع أولاده بشكل فائق طوال هذه الفترة، فتحوّلَت إلى خبرةً روحيّة لهم، ولكلّ الأجيال.. بركة صلاته تكون معنا جميعًا. آمين.

الكنيسة

مذكرات السجن

«من المذكرات الخاصة بأبينا القمص لوقا سيداروس المدونة بخط يده.»

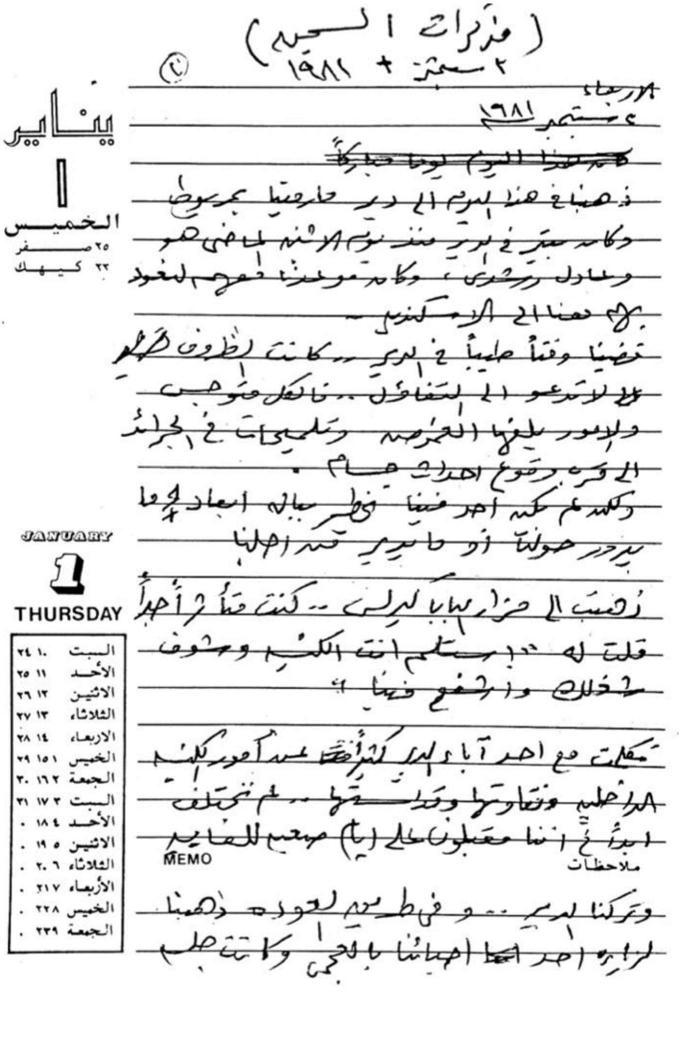
(مذكرات السجن)
٢ سبتمبر ١٩٨١

الاربعاء
٢ سبتمبر ١٩٨١

ذهبنا في هذا اليوم الى دير [illegible]
وكان عيد في الدير منذ يوم الاثنين الماضي [illegible]
[illegible] وكان موعدنا [illegible] للعودة
الى [illegible] الاسكندرية.
قضينا وقتاً طيباً في الدير .. كانت الظروف [illegible]
التي لاتدعو الى التفاؤل .. فالكل متوجس
والامور [illegible] وتلميحات في الجرائد
الى قرب وقوع احداث هامة.
ولكن لم يكن احد منا يخطر بباله ابعاد [illegible]
ما يدور حولنا او ما يدبر ضد اهلنا
ذهبت الى مزار البابا كيرلس .. كنت قلقاً [illegible]
قلت له [illegible] انت الكبير وشوف
[illegible] واشفع فينا !
تكلمت مع احد آباء الدير [illegible]
[illegible] لم نكن نعرف
ابداً اننا مقبلون على ايام صعبة للغاية
وتركنا الدير [illegible] في طريق العودة ذهبنا
لزيارة احد [illegible] احبائنا [illegible] وكانت [illegible]

يناير
1
الخميس
٢٥ صفر
٢٢ كيهك

JANUARY
1
THURSDAY

السبت	١٠	٢٤
الأحد	١١	٢٥
الاثنين	١٢	٢٦
الثلاثاء	١٣	٢٧
الاربعاء	١٤	٢٨
الخميس	١ ١٥	٢٩
الجمعة	٢ ١٦	٣٠
السبت	٣ ١٧	٣١
الأحد	٤ ١٨	.
الاثنين	٥ ١٩	.
الثلاثاء	٦ ٢٠	.
الأربعاء	٧ ٢١	.
الخميس	٨ ٢٢	.
الجمعة	٩ ٢٣	.

MEMO
ملاحظات

مذكرات السجن

(٣سبتمبر ١٩٨١)

الأربعاء ٢ سبتمبر ١٩٨١

ذهبنا في هذا اليوم إلى دير مارمينا بمريوط وكان بيتر(سيأتي الحديث عنه فيما بعد) في الدير منذ يوم الاثنين الماضي هو وعادل رشدي، وكان موعدنا معهما لنعود بهما معنا إلى الإسكندرية.

قضينا وقتًا طيّبًا في الدير... كانت الظروف لا تدعو إلى التفاؤل... فالكلّ متوجِّس، والأمور يلفّها الغموض.. وتلميحات في الجرائد إلى قُرب وقوع أحداث جِسام، ولكن لم يكن أحدٌ فينا يخطُر بباله أبعاد ما يدور حولنا أو ما يُدَبَّر من أجلنا.

ذهبتُ إلى مزار البابا كيرلس... كنتُ متأثِّرًا جدًا قلت له «استلِم أنت الكنيسة، وشوف شُغلَك واشفَعْ فينا»

تكلّمتُ مع أحد آباء الدير كثيرًا، عن أمور الكنيسة الداخلية، ونقاوتها وقداستها... لم نختلِف أبدًا في أنّنا مُقبِلون على أيّام صعبة للغاية.

وتركنا الدير... وفي طريق العودة ذهبنا لزيارة أحد أحبائنا بالعجمي، وكانت جَلسة روحية، وإن كانوا قد سألوا كثيرًا عن الأيّام المُقبلة وما سوف تحمله من أخبار، فوَجَّهنا قلبَهم إلى

الصلاة، وترك الموضوع في يديّ القدير.

ثم تركناهم، وفي طريقِنا زُرنا أيضًا أبونا جرجس رزق الله. وكان الوقت مساءً، وتحدّثنا بمرارة عما يُدبَّر للكنيسة وما آل الحالُ إليه، وقلت له ملاطفًا: «نبقى ناكُل عيش وحلاوة في السجن سويًّا»، وضحكنا وصلّينا وانصرفنا... وعدنا إلى المنزل.

في الساعة الحادية عشرة مساءً، كلّمني بالتليفون أحد أحبائي، وقال إنّه سيسافر في صباح الغد إلى الكويت... كان بودِّي أن أراه لأنّه خادم محب للمسيح، ولكنّه اعتذر بسبب كثرة مشاغله... فلبستُ ملابسي على عَجَل، وذهبتُ إليه وجلستُ معه وعائلته ساعة، عُدتُ على أثرها إلى المنزل في حوالي منتصف الليل.

الساعة ٣ فجرًا... جرس التليفون يرن في منزلي.

أسرعَتْ زوجتي إلى التليفون واستيقَظتُ على الفور، «مَن ؟!»

قالت: «أبونا تادرس طالبينه في المباحث وأخذوه حالاً ويريدك أن تلحقه هناك.»

لم يخطُر ببالي شيء ولكنّ ذِهني كان مشدودًا جدًّا... حاولت الاتصال بالأنبا تيموثاوس، ألبرت برسوم.

فوجدتُ الأنبا تيموثاوس، وكيل البطريركية في الإسكندرية لا يَعلَم شيئًا، والوزير (ألبرت برسوم) قِيل لي إنّه في القاهرة...

اتصلتُ بمنزل أبونا تادرس لأعرف الأمر بأكثر تفصيل... «هل تَعَرَّفَ أبونا تادرس على شخصيّات الذين أخذوه، هل بينهم رجال بوليس رسميّون؟!»

وبينما أنا أتكلّم وإذا الباب الخارجي لمنزلي يُفتَح بعُنف، ثم سمعتُ خطوات تصعد إلى أعلى، كنت ساعتها أتكلّم في التليفون مع ماري زوجة أبونا تادرس... قلتُ لها: «باي باي يا ماري لأنّهم وصلوا عندي»، ففتحت نادية الباب... حوالي ثمانية رجال، بينهم مساعد شرطة بزِيّه الرسمي... صافحتهم جميعًا مرحبًا.

ودعوتهم للجلوس في حجرة الجلوس... ولكنّهم رفضوا... قالواعلى الفور:«ممكن تلبس وتحضر معنا، لأنّ نظمي بك عاوزك» قلت لهم: «طبعًا، دقائق»... ولبستُ في ثواني، سألني الضابط عن صورة أبينا بيشوي المُعَلّقة فوق رأسي: «أين يدفن؟» أجبته بجفاء: «أنت تعرف»... قال لي وأنا ألبس حذائي: «لا تخَف يا أبونا كلّها ساعة»، قلتُ له: «مَن قال لكّ إنّي خائف؟ ربما تكون أنت الخائف»... قال: «هل نخاف ونحن في منزلك؟» قلتُ له: «يجوز».

طلبتُ إثبات شخصيّة أيّأحدٍ منهم قبل الانصراف، فأراني كارنيه ضابط بوليس بالجوازات برُتبة مُقّدِّم.

مُلابسات ليلة القبض عليّ:

إنّني أتعجّب بالحقّ من أعمال الله وسَترِه على ضعفي، فعِندما أراجع أحداث تلك الليلة، أعطي المجد لمخلّصي، الذي أعطاني نعمةً فوق نعمة، ولم يسلّمني فريسةً لأسنانهم.

في ليلة القبض عليّ كما ذكرتُ، كان يزورني فى تلك الأيام، الأخ بيتر براون فيلد، وهو شابّ أمريكيّ الأصل، كنتُقد عمّدته في ١٩٧٩ بلوس أنجِلوس؛وعلى وجه التحديد في أبريل ١٩٧٩م، وله قصّة توبة مؤثِّرة، تُشبِه إلى حدّ كبير توبة القديس أغسطينوس... وقد صارَ فيما بعد خادِمًا وشمّاسًا في الكنيسة، ثمّ اختاره الربّ لرُتبة الكهنوت.

هذا الأخ له قِصّة عجيبة فى انضمامه للكنيسة؛ فقد كان رياضيًّا عنده نادي رياضي لكمال الأجسام، وكان هو بطلاً في كمال الأجسام...تعَرّف بشابّ مصري يرتاد النادي، وصارا صديقين. ثمّ إذ كان يزوره في منزله، أُعجِبَ بأخته، وهي شابّة قبطيّة متديّنة، وكان يسهر عندهم، ويتكلّم ضدّ الإيمان، إذ كان واسع الاطلاع دارِسًا لكثيرٍ من الفلسفات.

فلمّا خَشِيَتْ الأخت على إيمانها، وكاد يُقنِعهم بأفكاره الإلحاديّة... جاءتنى إلى الكنيسة في لوس أنجِلوس، وحَكَتْ لي عن هذا الشاب، فقلتُ لها: ابتعدي عنه... فقالت: هو يأتى كثيرًا إلى أخي، وأنا موضوعة في مأزق.

وكان أن قالت له يومًا: أنا لا أستطيع أن أردّ عليك ولا أجادلك، ولكن يوجد كاهن كنيستنا.

ففرح جدًّا بهذا العرض، وقال: خُذيني إليه، وأنا أؤكّد لكِ أنّني سأقنعه أن يترك عمله هذا، وأنا (أتحدّى).

فلمّا أحضرته إلى الكنيسة، وكان وقت صلاة عشيّة يوم سبتٍ، ودخل الكنيسة ورأى الأيقونات والبخور، وممارسات الصلاة في الكنيسة الأرثوذكسيّة، صار يَسخَر في نفسه من هذه الخزعبلات، لأنّه كان مِن أصل بروتستانتي، ولم تكُن له معرفة بالكنيسة الأرثوذكسيّة... فازداد شَغَفًا في أن يجادلني ويحوِّلني إلى فِكرِهِ.

فلمّا انتهيتُ من صلاة العشيّة، عَرَّفَتني (الأخت) عليه، وذهبنا إلى سَكَنِي الملاصِق بالكنيسة. تأمّلتُه.. شابٌّ في بداية الثلاثينات من عمره، أمريكي من أصل ألماني، له عضلات مفتولة كبطل من أبطال كمال الأجسام، ولمّا تحدَّث إليّ في كِبرياء.. قال لي: لنبدأ بتحدِّي شديد... بلُغَة الواثق..

قلتُ له: ماذا تريد؟

قال: نتناقش.

قلتُ: فيما نتناقش.

قال: في الدين- في الإنجيل- فى الإيمان..

قلتُ له: لا، لن نتناقش.

قال: لماذا؟

قلتُ: لأنّ لا وجه للمقارنة، وستكون المناقشة غير متكافئة.

قال: لماذا؟

قلتُ: أنت رجل قويّ، وأنا ضعيف..

أنتَ درستَ كثيرًا وأنا لم أدرس اللاهوت، ولا التحقتُ بكُلِّيّات..

أنت قارئ (غزير) وأنا قليل القراءة..

أنت صاحب لُغَة قويّة، وأنا لا أعرف لغة..

فأنا مغلوب مغلوب قبل أن ندخل في أيّ مناقشة... (لكنّني) عندي شيء واحد أنا متأكّد مِنه؛ أنّني أحبّ يسوع المسيح الذي فداني بدمه، وأنا مُكَرِّس نفسي لخدمته، بسبب هذا الحبّ..

والحبّ ليس معلومات ولا نظريّات.

فالمعلومات مكانها العقل، أمّا الحبّ فمكانه القلب..

سكت الرجل... وقال إذن دَعنا من المناقشة، ولنفتح الكتاب المقدس.

قلتُ له: «ماذا تحب؟» قال: «سِفر الخروج». فتحنا سفر الخروج، وبدأتُ أتكلّم كلامًا بسيطًا حسب ما أعطَتني النعمة... وفيما أنا أتكلّم، استأذنَ وذهب إلى دورة المياه، عاد بعدها مُحمَرّ العينين... واستأنفتُ الكلام، وإذا به ينفجِر في البكاء... إذ قد لمسَت نعمة المسيح وكلمته الحيّة قلبه.

وفيما هو ينصرف قال لي: كلّما جئتُ إلى هذا المنزل، سأفتح قلبي، وأُغلق عقلي القديم.

وتكرّرتْ زياراته، وبعد مُدّة وجيزة اعترَفَ وتعمّد.. وكان يوم عماده عجيبًا مُفرِحًا، أحسّهُ الأحبّاء والخُدّام الذين حضروا، وفيما بعد صار شمّاسًا وخادِمًا في مدارس الأحد... وهواليوم كاهن له أكثر من ثلاثين سنة يخدم المسيح.

ففي ليلة القبض عليّ، كان الأخ بيتر، مع شمّاس من أولادي؛ عادل غطّاس «أبونا شنودة غطّاس» ينامون مع أولادي في بيتي.. فلو استيقظوا من نومِهِم ورأوا ماحدث، لاختلف الأمر.. ولو رأى الضبّاط الذين قبضوا عليّ هذا الأمريكي، الذي لا يَعرِف كلمة واحدة باللغة العربيّة، لكان الأمر يختلف تمامًا.

لأنّه ماذا أتى به إلى مصر؟

ولماذا أستضيفُهُ في بيتي؟

ولو ألّفوا قصصًا، واخترعوا حكايات على هذا الأمريكي، لكان كلُّ أحدٍ يصدّقهم، ولا يوجد دليل واحد ضِدّ حكاياتهم.

كم شكرتُ الله.. لأنّ الأخ بيتر في صباح اليوم والأيّام التالية، كان يمشي في الشارع باكيًا لمّا علِم بخبر السجن؛ فكان يقول أنّه يريد أن يعمَل أيّ شيء، حتى يُدخِلوه السجن معي؟!

أضِف إلى ذلك، أنّه قَبل القبض عليّ بأيّام كان يزورني شقيقي فوزي؛ وهو يعمل محاسِبًا في أبوظبي، وهو فنّانويتاجِر في المشغولات الذهبيّة والمجوهرات.

وكان قد ترك عندي شنطة بها مشغولات ذهبية، حوالي ٢-٣ كيلو، ومجوهرات.. وكانت هذه الشنطة مركونة تحت مكتبي... فلو كانوا قد فتّشوا منزلي، وعثروا على هذه الشنطة، ماذا يكون جوابي على أنّهم عثروا في بيتي على واحد أمريكي، وشنطة مشغولات ذهبية ومجوهرات..؟!

كنتُ وأنا جالسٌ على مكتبي ألبس جوارِبي، إذا بأحد الضبّاط يلمس بعض كُتُبي الموضوعة على المكتب،فرفعتُ رأسي وسألته بنغمة جادّة: ماذا تفعل؟

رفع يده من على الكتب، وقال: لا شيء...

علِمتُ فيما بعد أنّهم فتّشوا منازل كثيرة لآباء كهنة، بطريقة غاية في السَّخَف، إذ قد قلبوا المنازل رأسًا على عقب، حتّى المراتب والدواليب والسجاجيد والكتب والمكتبات... إلخ!!

كم شكرتُ المسيح، لأنّني في هذه الليلة بالذّات، كانت عندي أمانات مادّيّة كثيرة لأشخاص كثيرين؛بل إنّني في أيامها كان يشغل قلبي أن أبني كنيسة في العجمي في غرب الإسكندرية، لأنّها أصبحَت منطقة سكنيّة، وكثير من الأقباط سكنوا فيها، وليس لهم كنيسة، فكيف يربّون أولادهم؟

وكان بعض الأحبّاء متحمّسين لهذه الفكرة، لسبب كثرة العائلات المسيحيّة هناك، وعدَم وجود كنيسة بالمنطقة. كانوا قد وضعوا عندي بداية تبرّعاتهم، وكان المبلغ ٧٠ ألف جنيه موضوعًا في كيس وَرَقِي، مُلقَى تحت المكتب عند رِجليّ..

وإلى جانب ذلك، فإنّه كان يرقُد في منزلي في تلك الليلة هذا الضيف الأمريكي، الذي لا يعرف كلمةً باللغة العربية، ولا يَدرِي ماذا يدور حوله إذا ما باغَتَه أحدٌ...

فماذا لو فتّشوا البيت، ووجدوا هذه الأمور مجتمعةً؟

ألا تصلُح هذه الحيثيّات، لتأليف قِصّة محبوكة؟

ولكن بتدبير إلهيّ وسَتْر فائق، سارت الأمور بدون إزعاج.. فلم يستيقظ أحدٌ من أطفالي، ولا بيتر الذي كان ينام في الحُجرة المجاوِرة، إذ كان مُرهَقًا هو وزميله الذي كان يصحبه في كلّ رحلته. لذلك عندما أذكر كيف ستر الرب عليّ وكيف عبر الأمر هكذابسهولة، ولم يفطن الشيطان لينسج قصصًا من الخيال ويحبك ويوصف حولي قضايا وجرائم حسبما يشاء... ولكن الرب جنبني هذا الأمر وأعطاني نعمة في عيني الجميع.

نزلتُ معهم، ووجدتُ عربة البوليس (BoxFord)، وعددًا من المُخبرين أدخلوني إلى العَرَبَة، فوجدتُ أبونا تادرس جالسًا صامتًا. ركبتُ إلى جواره، ثم تحرَّكَتْ العربة إلى منزل أبينا صموئيل، وأنزلوه هو الآخر. واندفعَتْ العربة بنا بسرعة إلى مديريّة الأمن. وهناك وجدنا المنظر غير عادي.

حركة سريعة، وارتباك، وأوامر، وألغاز باللاسلكي.. وعلى باب مديريّة الأمن استلمَنا أحدّ الضباط وبلّغ رئاستَه أنّنا قد وصلنا بأسمائنا، وأصعدونا إلى الدور العلوي في حجرة أحد الضبّاط. وجدتُ أ. عادل بسطوروس وشابًّا آخر. لم نتحدّث سِوى صباح الخير.

الضبّاط الذين أعرفهم ويعرفونني، يتجاهلونني أو يتظاهرون بالانشغال.

دقائق رهيبة.. لستُ أعرف ما يدور حولنا.

ثُمّ أنزلونا إلى الطابق الأرضي مرّة أخرى في حجرة الضابط النوبتجي... حُجرة قذِرة بها مقعد واحد خشبي يسع أربعة أشخاص... جلسنا عليه، ثم بعد لحظات قادونا إلى الخارج...

كانت عربة ميكروباص تنتظرنا، واستمَلنا ضابطان وثلاثة مُخبِرين ركبوا معنا، ونحن محاطون بهم... وانطلقَتْ العَرَبة وأمامها عربة بوليس نجدة... واتّجهنا إلى الطريق الزراعي، ساعتها أدركنا أنّنا مُسافرون، ربّما إلى القاهرة... وانتهى الطريق... في مدخل القاهرة استلمَتنا عربة بوليس نجدة أخرى... سألوا عن الطريق إلى الخانكة... قلتُ لأبونا تادرس: «نحن ذاهبون إلى سجن أبي زعبل» لأنّني أعرف القاهرة جيّدًا... ثم سار الرَّكْبُ تتقدّمه عربة بوليس النجدة إلى المَرج، وهناك سألوا عن السجن... حتى وصلنا إلى بوابة السجن.

هذه أول مرة في حياتي، تطأ قدماي مثل هذا المكان.

كان أوّل ما لفتَ نَظَري، مَنظر المسجونين وهم يعملون في مزرعة السجن.

لم أكُن مُضطَرِبًا أو خائفًا... ولكن أقول الصدق في المسيح، كنت فرحانًا جدًّا... صحيحٌ أنا ماضٍ إلى المجهول، لكنْ كطفلٍ صغيركانت مشاعري هكذا تهتزّبالفرح، ربّما لعدَم إدراك مايدور حولي، ولكنّي أدركتُ فيما بعد أنّ عمل النعمة يؤازر النفس في مثل هذه الظروف، بما هو فوق إدراكِها وطبعِها، ويَحُول دون دخول الانزعاج إلى النفس في الداخل.

منذ سنواتٍ طويلة، وأنا مُصَاب بحساسيّة شديدة تلازمُني بصفة دائمة... فأنا أستعمِل مناديل كثيرة جدًّا... وفي بعض الأيّام تزداد لدرجة مُقلِقة، فلا أضبط نفسي من العطس والزكام، شيء صعب...

وكنتُ دائمًا حريصًا أن أملأ جيوبي بالمناديل تَحَسُّبًا، ولكنّي من الاستعجال في لِبس الرُّوب لم أفطِن أنّه ليس معي منديلٌ واحد.. وضعتُ يدِي في جيبي، وأنا أركَب عربة البوليس، وإذ بي لا أجدُ منديلاً واحدًا...

كيف أتصرّف؟ ولكن لا مجال للتفكير في شيء في تلك اللحظة، فذِهني مضطرِب ولا أستطيع أن ألاحق الأحداث... فتركتُ التفكير في ترتيب مناديل، وانشغلتُ بما نحن فيه.

والأمر الذي يفوق الإدراك، أنّني لم أحتَج إلى منديل في ذلك الصباح، وكأنّني صحيحٌ تمامًا، ولا أثرَ للحساسية. ومَرَّت الساعات والساعات، ووصلنا إلى السجن، ودخلنا الزنزانة وهي خاوية تمامًا... ولم تفاجئني نوبة الحساسية... ثمّ مَرَّت الأيّام، حتى كمال السبعة أشهر التي في السجن، ولم أُعاني يومًا واحدًا من الحساسية...!

فتعجَّبتُ جِدًّا، وكنتُ أشكُر نعمة المسيح؛ الذي صنع معنا أعاجيب.

وتذكَّرتُ كيفَ عال بني إسرائيل في البَرّية، مُدّة أربعين سنة.. ثيابهم لم تَبْلَ، وأحذيتهم لم تتهرّأ، وأرجلهم لم تتورّم مِن المَشي المستديم... هو عالَهم وقادَهم وسَيَّر لهم يمينَه، كانت تسندهم، فليُمَجِّدوه على رحمته لبني البشر.

استلمونا على باب السجن بالعَدَد خمسة أنفار... ثم دخلنا إلى مكتب مأمور السجن... عدد من الضباط يملأ المكتب، وكانت الساعة قاربت التاسعة صباحًا أو تجاوزتها بقليل... وجدتُ مظاريفَ صفراء على أحدِ الكراسي، قرأتُ أسماءَ على المظاريف... يا للعجب، أسماء آباء كهنة أعرفهم بالقاهرة... إذن الموضوع ممتدّ ومتشعِّب.

ابتدأوا بتفتيشِنا واحدًا فواحدًا... تجريد كامل من كلّ شيء.. وقراءة كلّ قُصاصة ورق في جيبي، والأجندات الصغيرة التي

بها العناوين والتليفونات، وكلّ شيء... ونحن في صمتٍ كامل، من لحظة خروجي من المنزل لم أتكلّم...

ولكنّي كنتُ أتكلّم مع حبيب نفسي... صلوات صغيرة جدًّا، ولكن بعمقٍ شديد... كان ينبوع عزائي، يفيض ويروي داخلي بهدوء، وأنا أراقب ما يدور في الخارج.

انتهوا من تفتيشي أنا والأستاذ عادل بسطوروس، وقادَنا أحدُ المُخبِرين، أمسكَ كلُّ واحدٍ بيدٍ، ثم ذهب بنا إلى مبنى منفصل، حولَه حرسٌ بالسلاح، وأدخلَنا إلى داخل، ثم فتح إحدى الزنزانات (١٥) وأدخلنا وأغلق الباب.

وصف الزنزانة:

حُجرة ضيّقة جِدًّا ١٥٠ × ١٨٠سم، وداخلها حاجز من الطوب، خَلفه تواليت بَلَدي. الزنزانة ليس فيها فتحات للتهوية ولا شِبّاك، وبابها صاج حديد بسُمك ١٥سم، وبه فتحة(٨سم × ٨سم)، وأعلاه شرّاعة بعرض الباب، عليها شبكة سِلكيّة.

وجدنا شابًّا جالسًا في الداخل (جرجس... من الإسماعيلية) تعرّفنا عليه.

حالما دخلنا إلى داخل، سجدتُ على الأرض، وصلّينا صلاةً طويلة وعميقة... مملوءة فرحًا وتعزيةً، وأتذكّر جيّدًا أنّ كلماتِ الصلاة كانت تَطغَى عليها نغمة الشكر والامتنان، من

أجل هذه النعمة التي أعطانا الرب إيّاها... لأنّ في ذهني هذا هو ميراث الرسل الأطهار، الذين كانوا أوّل مَن سُجِنوا من أجل اسم مخلّصنا.

ثم جلسنا بعد الصلاة.. ومِن أعمال التدبير الإلهي، أن سمَحوا للأستاذ عادل أن يكون معه إنجيله؛ عهد جديد صغير... فأخذتُه وقرأنا سَوِيًّا رسالة فيلبي، التي كتبها القديس بولس وهو في سجن رومية.. وهي رسالة الفرحِ النابع من أعماق السجن، تعزّينا بها جدًّا.

ثم توالَت الأحداث... حركة دائمة في العنبر. وَقع أقدام، وأصوات، ومزاليج الأبواب.

وكنتُ بين الحين والآخر، أقف لأنظر من الفتحة الصغيرة جِدًّا، وأرى كهنةً يتقاطَرون واحدًا وراء الآخَر، مع أخوة علمانيين.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر وقفتُ لأنظر... أذهَلَني المنظر جدًّا، الأنبا بنيامين أسقف المنوفيّة في قبضة المُخبر، واقفًا أمام أحدهم يسأله عن اسمه وسِنّه ومكان إقامته.

ثم أدخلوه زنزانة رقم ٦... يا للهول... قد فاض الكيل... وكنتُ أخبِرُ الجالسين معي... فامتلأنا دهشةً وذُهولاً.. تُرَى ماذا حدث، ماذا يحدث، وماذا سيحدث... هل انفَكّ الشيطان؟

هل جُنّ الرجل الذي أصدر مثل هذه القرارات؟

ثم توالَت الأحداث بعد ذلك بساعات.. أسقف آخر ثم ثالث إلى أن صاروا ٨ أساقفة و٢٤ قسّيسًا، وكثيرًا من العلمانيين.

وبالحقّ كانت الساعات الأولى خانقة للنفس كئيبة وثقيلة ورهيبة حقًّا، وقد زادَها قسوةً هذه الزنزانة التي لا تصلُح لسُكنَى الحيوانات.. فالهواء الفاسد تستنشقُه بلا تغيير، وحرارة الشمس تضرب الزنزانة طوال ساعات النهار، حتى إذا ما جاء الغروب أفرغَتْ حيطانُها كلّ ما اختزَنَته مِن حرارةٍ إلى داخل الزنزانة، فوَصَلنا إلى درجة الاختناق، وعبثًا حاولنا التغلُّب على ذلك، ورائحة التواليت بدون مياه صرف زادَت الطين بَلّةً، فصار الاحتمالُ صَعبًا.

ولكن شكرًا لغِنى نِعمة المسيح، الذي صار عزاءنا ورجاءنا وفرحنا... ولولا هذه النعمة التي آزرتنا، لما بقِيَ لنا بقيّة من حياة، ولا مِن أمل ورجاء في شيء.

فلم تكُن قوّتنا البشريّة، لنحتملَ شيئًا من هذا ولو لمدّة يومٍ واحد، لأنّ مُعظمنا ضُعفاء في بِنيَتِهم من كثرة الأصوام والحيّاة النُسكيّة، وحتى أنّ بعضًا مِنا كان قد تجاوز ٧٦ سنة بشهور.

فكيف عالَتْ النعمةُ وسندت، وصارت عضدًا لكلّ هؤلاء، ولم يفشل منهم أحدٌ خلال مدة إقامتنا في هذه الظروف، التي لم تتغير على مدى ٤٥ يومًا كاملة؟!

ومن جِهةٍ أخرى فقد ظلّ البعض مِنّا لا يذوق طعامًا ثلاثة أيام كاملة، إلى جوار قسوة المعيشة التي لا تُوصَف.

أقول إنّه لولا غِنى النعمة ومؤازرتها، لَما بَقِيَ فينا أحدٌ بغير مرضٍ مُزمِن على الأقل.

ولكن كلّ الذين يعرفوننا... اندهشوا عندما رأونا لأول مرّة بعد ٣ شهور، وإذ بنا وجوهُنا نضرة، وصحّتنا بنعمة المسيح وحده، أفضل مِمّا كانت عليه... فالفضل إذن يرجِع للمسيح إلهنا أولاً وأخيرًا.

أعود لسُبُل العيشة في داخل الزنزانة : فعلى مدى الأسبوع الأول لم يكن يُسمَح لنا بشيء على الإطلاق.

† مِن ناحية الخروج خارج الزنزانة، كان في الأيام الأولى لا يَتَعَدَّى خمسَ دقائق كلّ أربعة وعشرين ساعة، تزيد إلى عشر دقائق... ثم تدريجيًّا صار بعد ١٠ أيام ٣٠دقيقة كلّ ٢٤ ساعة.

† ومن جِهة التغذية، ففي الزنزانة طبق واحد نستخدمه لجميع الأغراض، وغير مسموح بغيره... لا ملعقة ولا خلافه... ولا مكان حتى لوضع الخبز... فكُنّا نضع خبزنا بجوار التواليت على الأرض، إذ لا يوجد موضع آخر.

وفي آوِنة أخرى، كُنّا نضع الخبز فوق الأحذية لنرفعه عن الأرض. وكان طعام السجن المعتاد، قطعة من الجبن الحجري كلّ يومين صباحًا، والعدس في الساعة ٣ يحمله المسجونون بقذارة مُقَزّزِة للنفس جدًّا في جرادل وصفائح، تتساقط فيها الحشرات، ويَغرِفونه بأيديهم... غاية في القذارة، تشمئزّ مِنه النفس وتَعافَه.

وكنتُ أشكرُ المسيحَ كثيرًا، إذ ما تبلُغُهُ النفس في مثل هذه الظروف من اتضاع إجباريّ، يصيرُ نافِعًا للخلاص، ويعوّضها عن الملذّات الجسدانيّة، والتَّرَف العالميّ الذي تمرَّغَتْ فيه كثيرًا

إلى جانب الأرز... كُنّا نضعه في ذات الطبق أو على رغيف خبز، وكُنّا نأكل بأيدينا، ثمّ استعوضنا عن الملاعق بورق كرتون، إلى أن سُمِحَ لنا بدخول ملاعق بلاستيك، بعد شهرٍ تقريبًا.

† لم يُسمَح لنا حتى بدخول غيار داخلي، إذْ كان معظمنا قد حضَر على عَجَل، وبدون استعداد. وحتّى الذين أحضروا معهم بعض حاجياتهم، لم يُسمَح لهم ولا بشيء... فظلّلنا الأسبوع الأول بذاتِ الملابس، ننام ونقوم فيها مع العَرَق.

ثمّ وزّعوا علينا قطعة صابون غسيل من نوع رديء، فشكرنا ربّنا جِدًّا، وغَسَلنا بها وجهَنا، بل واستَحمَمنا أيضًا، ولبسنا ذات الملابس.

ثم تَحَسَّنَت الأحوال بعد ذلك، وسُمِحَ لنا بغيارات وصابون نشتريه من الكانتين، واستخدام الحَمَّام (حمام لاثنين به دش

ويستحمّ فيه اثنين في آنٍ واحد).

† أسوأ ما كان في الحياة داخل هذه الزنزانة هو سوء التهوية؛ فكَم قضيتُ أوقاتًا طويلة منبطِحًا في أرض الزنزانة، واضِعًا وجهي نحو الأرض، ومحاوِلاً أن أضَع نفسي في عقب الباب، لعلِّي أحصُل على نسمة هواء.. ولكنّ مُصَمِّم هذه الزنزانة، القاسي القلب، لم يَترُك مسافةً بين الباب والأرض أكثر من سنتيمتر واحد.

† أضِف إلى ذلك كميّات رهيبة من بعوضٍ متوحِّش، يَملأ الزنزانة مع غروب الشمس؛ وعبثًا راحت كلّ محاولات للإفلات من نَهشِهِ القاسي... وبعد ثلاثة أسابيع أدركَتنَا مراحم ربنا بالسماح باستخدام البيروسول؛ وإذ كانت له فاعليّة شَكرْنَا الله عليها، إلاّ أنّه من جانب آخر كان ضيقًا وتَعَبًا للكثيرين، إذ أنّه كان يُرَشّ في المساء بواسطة المخبر والسجّان في حضور الظابط النوبتجي؛ وكانت أوامر الضابط أن نخرُج من الزنزانة مُدّة الرشّ التي لا تزيد عن ثوانٍ قليلة، ثم ندخل إلى الزنزانة مباشرةً. وعبثًا حاولنا وتوسّلنا أن تزيد مُدّة بقائنا خارج الزنزانة إلى ٥ دقائق حتى تهدأ رائحة البيروسول داخل الزنزانة... ولكن كانت التعليمات، هكذا قاسية وليس فيها تفاهم. فكان والأمر كذلك، أنّ البعض مِنا فَضَّل نهش البعوض على ضيق التنفس مع رائحة البيروسول.

كيف نقضي الأيام؟

ما أنْ استقرّ بنا المقام مدّة أيّام قليلة، حتى اقترَحنا أن نتذلّل أمام الله بالتضرُّعات وطَلَب المراحِم، التي اعتادتها الكنيسة في أزمنة الضيق. وتذكّرنا أنّ الميطانيات مع الصراخ «يارب ارحم كيرياليصون» الذي يصعد من الكنيسة هو الذي نقل الجبال، وهزَّ أعتاب السماء مِرارًا، وزلزل أساسات الأرض مرارًا، وهو الذي صنع الآيات والمعجزات. وتذكَّرنا كيف سقط صكٌّ كتبه إنسان للشيطان على نفسه، كيف سقط هذا الصكّ في أيّام القديس باسيليوس؛ الذي أَغلقَ الكنيسة بعد صلاة القداس على المؤمنين، وطلَبَ إليهم أن يصرخوا بتوسُّلات إلى أبي المراحم... واستجاب الشعب لصوت أسقفه القديس وظلّوا يصرخون، حتى سَقَط الصكّ الورَق في وسط الكنيسة، بقوّة هذه الصلاة الحارّة والقلبية.

فاتفقنا جميعًا أن نتوسل إلى الله بهذه الصلاة والميطانيات، ٤٠٠ مرة في كلّ صباح.

فكانت فرصة مباركة، انسكبَتْ فيها دموع كثيرة، وتطهّرت النفوس ونيّات القلوب.

وكُنّا نُرَدِّد هذه الصلاة بحماس روحانيّ، وكان بعض الآباء يتناوبون قيادة المجموعة بأصواتهم، لكي يكون الكلّ باتّفاق وانسجام وبلا نشاز... فكان يضع أحد الآباء فَمَهُ، مُقابِل الفتحة الصغيرة في باب الزنزانة، فيَسمع الجميع ويُرَدِّدون معه بروح واحد.

وهكذا كُنّا نبدأ يومَنا... قبل الساعة الثامنة من الصباح... وكان معظمنا يستيقظ مبكِّرًا جِدًّا لأنّ ساعات النوم داخل الزنزانة كانت قليلة جدًّا؛ من ناحيةٍ أنّنا لم نكن نبذل أيّ مجهودٍ، فيكفي أقلّ قدر من النوم، ومن جهة أخرى كلّ الظروف المحيطة بنا مجتمعةً تدفَع إلى السهر والصلاة.

التماجيد:

إلى جانب ميطانيات الصباح والتوسلات وطلب المراحم، تَذَكَّرنا كيف أنّ العذراء القديسة مريم شفيعتنا وأمّنا كلّنا، كُتِب عنها «كانت واقفات عند صليب يسوع مريم أمه وأخت أمه». وتأمّلنا كيف أنّ العذراء تقف دائمًا عند صليب يسوع أينما وُجِد، وحيثما وُجِد، وتَيَقَّنا أنّنا ونحن نمرّ بهذه الضيقة أنّنا في مركز الصليب، أو أنّ الربّ أهَّلنا نحن الضعفاء لحَمل صليبه ونحن غير مستحقين. وأدركنا للحال أنّ العذراء القدّيسة مُرَافِقة لنا، وواقفة في وسطنا، فصِرنا نَصنَع تمجيدًا للقديسة العذراء كلّ ليلة.. وقد زاد الموقف جلالاً بعض الأصوات الملائكية لبعض الآباء، وكأن الوجود داخل الزنزانة أضاف إلى أصواتهم نعمةً خاصةً، فصارت التسابيح شهيّة ومُعَزّية للنفوس بشكلٍ مُعجزٍ.

ثمّ انضمّ إلى العذراء القدّيسة في تمجيدها، جمهورٌ من الملائكة والشهداء والقدّيسين ولُبَّاس الصليب.

فصار التمجيد المسائي بمثابة سحابة شهود محيطة بِنا حَقًّا، لتطرح عنا كلّ ثقل وكلّ خطيّة، ونحاضر بالصبر في الجهاد الموضوع أمامنا (عب١٢: ١).

وكانت تسلية البعض في الترانيم.. يردّدونها كثيرًا، ويكرِّرونها، وينهلون منها تعزيةً ليست بقليلة، لا سيّما إنْ كانت كلمات الترتيل من مزمورٍ مُعَزٍّ، أو آيات تمسّ حياتنا في هذه الضيقة؛ مِثل «إن نسيَت الأمُّ الرضيع، ربّي لا ينساني»

ومِن الطريف حقًّا، أنّه كانت هناك ترتيلة تقول كلماتها «يسوع في السفينة يا بطرس، قوّته عظيمة يا ريّس... يسوع في السفينة»

فلمّا رتّلها الآباء والأخوة، حوّلوا كلماتها إلى «يسوع في الزنزانة يا ريس... قوّته ويّانا يا ريس... يسوع في الزنزانة»

وكانوا يردِّدونها بإحساس الوجود الفِعلي للمسيح إلهنا؛ عمانوئيل في وسطنا.

أضِفْ إلى ذلك صلوات السواعي بمزاميرها، وقراءات الكتاب المقدس التي صارت أكلَنا وشربَنا، إذ ليس لنا شيء آخر نهتمّ به، أو ننشغِل عن الإنجيل بسببه... فقرأنا الكتاب المقدس بنَهَم، والبعض منّا في مُدّة تقِل عن ٤٠ يومًا قرأ الكتاب المقدس بعهديه، بل والبعض زاد على ذلك كثيرًا.

والبعض مِنّا لم يكتف بمزامير الأجبية وصلوات السواعي، بل وَزَّعوا المائة والخمسين مزمورًا فيما بينهم، يقرأونها في كلّ صباح.

وفي أيّام كثيرة، كُنّا نستيقظ في الصباح الباكر على صوت ملائكي حنون ورقيق جدًّا، يصرخ بأجزاءٍ مِن القدّاس الإلهي، الذي كان الحنين إليه يعتصِر كلّ نفس، فكُنّا نُرهِف السّمَع لهَبَّات نسيم ريح الصباح، مُعطَّر بشذى هذا النغم الروحاني، فتستريح نفوسنا جدًّا..

كان صوت أبونا مكسيموس كاهن المراغة صوتًا كنسيًّا حنونًا، وقد زادته تجربة السجن عذوبة وروحانيّة خلاّبة، وقد تَعَرَّفتُ عليه من خلال هذا الصوت الحنون، قبل أن نعرفه بالوجه، إذ جاءت هذه المعرفة متأخِّرة.

وفي بعض الأيَّام، كُنّا نشترِك في تعزية سماع بعض الأسفار، يتلوها أحد الآباء من زنزانته بصوتٍ مسموع للجميع. واخترنا أسفارًا كثيرة منها سفر أستيرودانيال وسفر يونان، وبعض فصول من الأناجيل والرسائل، فكانت الكلمات تخترق جدران القلوب، متجاوِزة كلّ أسوار السجن وحيطان الزنازين...

ثم بتوالي الأيّام اتّفقنا أن يكون لنا برنامج لفترة المساء، للاستفادة بكفاءات البعض مِنّا، ولتعزية المجموعة... وكان صُلب البرنامج: دراسة لبعض فصول وأسفار في الكتاب المقدس،

ومناقشات في أمور الحياة الروحيّة، وخِدمة الكلمة، وكان يقود هذه الدراسة بعض الآباء الأساقفة، وبعض الآباء الكهنة، وكانت غالبًا ما تتبلوَر نتائج المناظرات إلى خير وفير، وفائدة جزيلة لكلّ نفس.

وقد اشترك معظم الموجودين على مدى الأيّام التي قضيناها، وقد دَرَسنا فيما درسنا الموعظة على الجبل، ورسائل القديس بولس الرسول إلى العبرانيين وأفسس وتسالونيكي وكولوسي وتيموثاوس وغيرها...

عيد النيروز: رأس السنة القبطية ١٦٩٨

كان حلول عشيّة رأس السنة القبطيّة، وتذكار آبائنا الشهداء الأبرار، بعد أسبوعٍ من حبسِنا داخل الزنازين... وقد كان عِيدًا فريدًا حَقًّا، لأنّ النعمة كانت قد أهّلتنا لهذا النصيب الفاخر؛ أن نُعَيِّد للشهداء ونحن نحتمِل ولو ظِلّ آلامِهم، ورائحة سجنهم في أنوفنا، وذكريات بطولاتهم وحبّهم للمسيح يُعبِّق الجوّ حولنا، ويحوِّل مرارتنا إلى صلاة.

حقًّا كان نيروزًا فريدًا... عملنا صلاة التسبحة، ثم صلوات العشيّة بالطقس الفرايحي... وبالحقيقة قد غطَّى الفَرَح نبرات الحزن في أصوات المصلّين، واختلطت الذكريات التي حصّلناها في السنين الماضية من القراءات وسماع قصص الشهداء، اختلطَت مع الواقع فصارَت ذات معنى جديد وطعم خاصّ.

ثم بعد العشيّة عملنا تمجيدًا للشهداء، ثم تكلّمنا عن حبّهم للمسيح وحملهم الصليب إلى الجلجثة.. ثم عكفنا كلّ مِنّا في زنزانته يصلّي صلواته الخاصّة يستقبِل بها اللحظات الأولى من سنة جديدة للشهداء... وكانت لحظات رهيبة، انسكبَت فيها دموع للتوبة، وطِلبات حارّة من أجل الكنيسة كلّها، من أجل سلامِها وسلامتها، من أجل باباها وأساقفتها وكهنتها وشمامستها وشعبها وكلّ امتلائها، من أقصاء المسكونة إلى أقصائها.

المعاملة من رجال الإدارة:

ساد الجوَّ الذي كُنّا نعيشُ فيه ضبابٌ كثيفٌ وتَعمِيَةٌ كاملة... فكلّ ما حولنا غامض، والكلمة التي على كلّ شفه هي «التعليمات».. فمِن حجرة النوم في الثالثة صباحًا فجر الخميس إلى الزنزانة مباشرة في التاسعة صباحًا... لم نتكلّم أثناءها كلمة واحدة مع مسئولٍ، كائن من كان .. وتحرُّكات رجال الإدارة غاية في الكتمان والسرِّيَّة، وكلامهم كأنّه بالشفرة، أو بِلُغةٍ أخرى لا نفهمها...

وعبثًا حاولنا أن نسأل أحدًا... لماذا نحن ههنا؟ أو ماهو مصيرنا؟ أو إلى متى سيظلّ الوضع هكذا؟ أو بأي حقٍّ أتَوا بنا إلى هنا، وبأيّ قانون، وبأيّة تهمة؟ ومن العجب أنّ الإجابات على هذه الأسئلة جميعها كانت إجابة واحدة: نحن لم نحضركم إلى هنا... نحن مجرّد سجّانون، والتعليمات التي عندنا ننفِّذها! ياللعجب أين المسئولين إذًا... أحضِروا لنا مسئولاً... فلا مَن يَسمَع ولا مَن يُجيب.

وقد تكرَّرت في الأيام الأولى، زيارات مدير مصلحة السجون اللواء محسن طلعت، يزورُنا كلّ صباح، ويفتح زنزانة زنزانة، فيجد مَن فيها جالسين على الأرض، ويسأل سؤالاً واحدًا:

«إزَيّ الحال؟»

فنجيبه: «الحمدلله»...

«مبسوطين؟ عندكم مَيّه... أيّ خِدمة؟ اقفِل يا عبد الغني»...

وكأنّ الرجل كان يأتي خِصّيصًا ليرى بعينيه، أنّ تعليمات القسوة مُنَفَذة بأكثر شِدّة، وأنّ المذَلَّة بهؤلاء القوم وصلَت ذَروتها، من الساعات الأولى لسجنِهم.

وكان يحاول كلّ مِنّا، أن يسأل هذا المسئول الكبير، فلَمْ يكُن يجيب على شيء، سوى بالإجابات السالفة الذكر، ويُغلِق باب الزنزانة، ويمضي هو وجمهورٌ مِن حَولَه، مأمور السجن والضباط ورجال المباحث ومفتشو السجون...

وإحقاقًا للحَقّ نقول إنّه مع هذه التعليمات القاسية، يبدو أنّه كانت هناك تعليمات أخرى لجميع الذين يعاملوننا، ألاّ يسيئوا إلينا حتى بكلمة نابية، أو لفظ سخيف يجرح شعورنا.

بل على العكس كانت العبارات رقيقةً، وكان احترام مأمور السجن والضباط للآباء شيئًا يُسجَّل لهم بكلّ تقدير.

نظام الفُسحة:

بعدما استتبّت الأمور، وصارت الأيّام روتينيّة... فلم يَعُد يَرِد إلى السجن آباء أو أخوة جُدُد، ولم يعد تبديل ولا تغيير في التسكين داخل الزنازين... أوكَلوا خِدمة العنبر الذي به الزنازين، وكان يُسَمَّى «سجن التجربة»، أوكلوا حراسته وخدمته إلى ثلاثة نوبتجيّات من الضبّاط؛لكلّ منهم يومٌ يتواجَد فيه من الصباح إلى صباح اليوم التالي، مع الوجود الدائم لرجال المباحث، يراقِبون كلّ حركة، ويُسَجّلون كلّ كلمة تُقَال، بشكلٍ مُدهِش ومُذهِل للعقل.

وكان الضبّاط الثلاثة: الرائد إبراهيم البطريق، وهو شابّ دمث الأخلاق طيّب القلب، غير راغب في خدمة السجون، غَير راضٍ عن الأوضاع، وهو من عائلة غنيّة يعملون في تجارة الأخشاب، وكان يُكِنّ لنا حُبًّا عظيمًا، ولكِن مع عجزٍ كامل لعمل شيء، حتّى أبسط الأمور.

والثاني هو نقيب طبيب مجدي... خريج جامعة الأزهر، وهو أقرب إلى الطبيب مِنه إلى ضابط البوليس، فكانت أخلاق الطبيب كثيرًا ماتغلِب عليه، إلاّ أنّه لم يكُن بإمكانه التخلّي عن بزّته العسكرية، وكلّ تبعاتها الأخلاقيّة والسلوكيّة.

وقد وجدْتُ نعمةً في عينيّ هذا الضابط، وصارت تربطنا مَوَدّة شديدة، وكان يُخرِجني من زنزانتي في يوم نوبته، ويَسمَح لي

بالتواجد في الحوش مُدّة ساعات كاملة، إذ كانَ يَرِقّ لحالي، إذ بَلَغَ صمتي آنذاك إلى درجةٍ كان يُخشَى فيها على حياتي، إذ بلغتُصحتي من الضعف والهُزال، من سوء التنفُّس وسوء التغذية والحبس المستديم. فكان أن جَعَل الربُّ قلبَ هذا الضابط يَرِقّ لحالي، وكان يأنَس إلى حديثي معه في أثناء الفسحة، فكان يُطِيل مُدّة وجودي خارج الزنزانة، مُخالِفًا للتعليمات، ولو أنّ هذا التصرُّف عَرَضَّهُ للخطر مَرّات كثيرة.

وكان الضابط الثالث، مُلازِم شُكري عبد المقصود، بكالوريوس خِدمة اجتماعيّة، والتحق ليعمَل بالبوليس، وهو أصلاً من وسط فقير، ومُعتَزّ بجُنديّته جدًّا، وشاعر بعظمة مركزه وسلطانه، لذلك كان ينفّذ التعليمات بأكثر حَرْفيّة، ويُزيد عليها قسوةً إن لزم الأمر، ولم يكُن أحدٌ يستطيع أن يُراجِعه في شيء، لأنّنا لم نكُن نَعلَم ما هي التعليمات الحقيقيّة، وما هو المزيد منها، فكُنّا نَخضَع لكليهما.

إلى جانب هؤلاء الضبّاط، يوجَد السجّانون الرقيب أوّل عبد الغني... كان مُرَشَّحًا أن يَعمَل عَشمَاوي بالمشنقة... رجُل فَظّ في مَنظره، ولكنّه طيّب القلب، مُضحِك في جُمله تصرُّفاته... ريفيّ في حديثه، وله أولاد متعلِّمون ومُتَخَرّجون في الجامعة، وكان الضبّاط يحترمونه لسِنّه ولمركز أولاده، وهو رجل متديّن يَحفَظ حكايات كثيرة من الأنبياء، بحسَب ماتَعَلَّم في كُتّاب القرية، ويلذّ له أن يعِظ بها وأن يردّدها. وكان للرجُل فصول كثيرة كانت تُسَرّي

عَنّا وكُنّا نتندّر بها، وكان يوم نوبته يشيع جوًّا مِن المرَح، لا سيّما في وجود الضابط ورجال المباحث خارج العنبر.

ثُمّ الرقيب فتحي فتح الباب، وهو رجل ريفيّ طيّب، كلماته كانت رقيقة كخادم مع سيّده «عيون فتحي» «على عيني حاضر» هكذا كان يصيح طول اليوم، مُجيبًا لطلباتنا ونحن داخل الزنازين...

وقد كان هذا اللسان الحلو معنا، يُخرِج ألفاظًا نابية وشتائم غاية في القباحة للأولاد المسجونين، الذين كانوا يأتون بهم لتنظيف الزنازين ومسح الأرضيات.

ثمّ الرقيب جوهر، وهو رجل عاقل متديِّن ولكنّه يَكرَه التطرُّف، وكان الرجل مُستاءً جدًّا بوجودنا، وقد قال لي يومَ وفاة السادات... إنّ هذا الرجل خَتَمَ حياتَه بأسوأ عمل وهو سجنكم، ولهذا كان الجميع يتوقّعون موتَه بهذه الطريقة البشعة..!

واستغربتُ حديثَ الرجل جدًّا، ولكنه استطرد يقول: إنّ بذرة الشرّ التي زرعها هو في نفوس المتطرّفين هي التي حصدَها وحدَه في مقتله.

إلى جانب الضبّاط والسجّانين، كان يلازِم عنبر التجربة اثنان من رِجال المباحث، بصِفة مستديمة طوال النهار والليل.

ومِن العَجَب أنّه كان لهؤلاء المُخبرين سلطان حتّى على ضبّاط السجن، فكانوا يخشونهم لأنّهم كانوا يُبَلِّغون عن كلّ مايرونه

ويسمعونه، فكان الجميع يَعمَلون لهم حسابًا في كلّ كلمة وكلّ تَصَرُّف.

وكان هؤلاء المُخبِرون يُشرِفون على سير العمل، وتنفيذ التعليمات، ويراقبون كلّ شيء.

برنامج اليوم:

كانت الزنزانات مَبنيّةكحجرات متلاصِقة على شكل حَرف T وكانت مُرَقَّمة من ١ إلى ٣٠، واستقرّ بنا الحال أن يسكن كلّ ٢ في زنزانة، وباقي المسجونين حوّلوهم إلى سجن أبي زعبل بعد ٥ أيّام تقريبًا. وكان يتعيّن علينا أن نَخرُج في الفُسحَة كلّ زنزانتين في آنٍ واحدٍ لمدة ٣٠ دقيقة، ثم يعودون ليَخرُج غيرهم بالترتيب.. فكانت آخر دُفعَة تَخرُج بعد ٧ ساعات من الدفعة الأولى... فإن بدأَتْ الفُسحة الساعة ٩ صباحًا تنتهي الرابعة بعد الظهر وكانت التعليمات تقول ألاّ يتحدَّث مسجونو زنزانة مع الزنزانة الأخرى، فكان يتمشّى كلُّ اثنين على جانب من الحوش المحيط بالزنازين، يفصلهما المبنى.

وكان بالطبعِ ممنوعًا أن نتحدّث ونحن في الطُرقَة مع أحد داخل الزنازين، حتى التحيّة العاديّة و«صباح الخير» كانت تُعتَبَر مخالَفةً للتعليمات.

قصّة طريفة:

بعد ثلاثة أسابيع من إقامتنا بالزنازين في سِجن المرج، كان الأمر شِبه مستقرّ، وكانت الحياة أخذَتْ شكل الروتين، إلاّ مِن مايستجِدّ من أخبار الآباء، الذين كانوا يذهبون للمُدَّعي الاشتراكي في ميدان التحرير للتحقيق، الذي اتّخذ شكلاً سياسيًّا؛ إذ كانوا قد جهّزوا مجموعة من الأسئلة يسألونها للآباء الأساقفة، ومجموعة أخرى للكهنة. لذلك فقد كانت حياة ضبّاط السجن الذين يتولّون أمرَنا، قد انتابها هذا الروتين المُمِلّ. فراحوا يُرَوِّحون عن أنفسهم بتسلياتٍ، والألعاب المتاحة لهم، وكانوا يُشركون بعضَ المسجونين من عنابر المساجين، لكي يشاركوهم نشاطهم الترفيهي، لأنّ الضبّاط كانوا قِلّة، فلَزَم لهم أن يستكمِلوا العدد بإشراك المسجونين.. خرجوا يومها كفريقَين لِلِعب كرة القدم في حوش العنبر الملاصق...

ولسوء الحظّ أصيب الضابط الدكتور مجدي في قدمه، إصابةً أوقَفَتْ اللعب، وعاد إلى عنبرنا وهو يستند على اثنين من المساجين كعكازَيْن، وهو متألم يتأوّه. فلمّا وصل إلى آخر الطُرقَة الوسطى، وجلس بجوار باب زنزانتى... وكنتُ وقتها مُستلقِيًا على الأرض، وواضعًا أنفي أسفل الباب، لكي ألتقط بعض الهواء من تحت عقب الباب.

فلما سمعتُالجلبة وأصواتَ التأوُّه، قمتُ لأستطلِع الأمر، فوجدت الضابط الدكتور مجدي على هذا الوضع، فلمّا جلسَ اقترَب إليه الضابط شكري وقال له: «مالك أنتَ تَعبان خالص... ماذا حدث...؟» قال بصوت منخفض: «أنا مش عارف يا شكري، الظاهر إن واحد من أولاد كذا (مشيرًا إلى الآباء المسجونين) دعا عليَّ دعوة» كانت أذني قريبةً منه رغم انخفاض الصوت، فضحكتُ في نفسي لهذه الحساسية الغريبة، أنّه يَخشَى أن يكون أحد الآباء قد دعا عليه فهو يعاني...

فضحكتُ بصوتٍ مسموع وقلت: «بس ماتشتمش» فأجابني وقال: «أنتَ فين؟.»

قلتُ له: «أنا نايم على الأرض وودني معاك تحت عقب الباب» فقال «أنا آسف صدقني لا أقصد»

قلتُ له: «يا راجل... جميع الآباء يَدعُون لكم، ولا يَدعُون عليكم، ويتمنّون لكم كلّ الخير، لأنّ أنتم ماهو ذنبكم؟!»

التعارُف:

كان بين المسجونين معنا أحدُ السياسيّين «شيوعي» ولم تكُن هذه هي المرّة الأولى له بالسجن... فكان يعرف معيشة المسجون وحقوق المسجونين... إلخ.

فبدأ يتكلّم بصوت مرتفع من داخل زنزانته، وبدأ بالتعارُف بين الزنازين، وكان كلّما قَدَّم أحدَهم يجعل الذين معه في الزنزانة يُعلِنون اسمه... وهكذا حتّى اكتمل عددُنا.

أحداث مؤلمة للنفس:

أصابت الأمراض كثيرًا من الآباء والأخوة من الحبس المتّصل، إلى جانب العوامل النفسيّة التي تضغطهم. ففي اليوم الرابع لوصولنا، وكُنّا في زنزانتنا ثلاثة: القس صموئيل والأستاذ عادل بسطوروس وأنا...

وفي صبيحة الأحد ٦/ ٩/ ٨١ ابتدأت صِحّة أ/ عادل تتدهوَر... كان عنده قُرحة مُزمِنة يعاني منها، وابتدأ يشعر بنزيف داخلي، وبسرعة مُخيفة ابتدأ يصفرّ لونُهُ ويشحب، ثم ابتدأ في تشنّجات متتالية، إلى أن قارب الموت، وكُنّا في داخل الزنزانة لا نملك شيئًا سوى الصلاة والدموع، وابتدأنا نصرخ من داخل الزنزانة... وبعد قليل أقبَلَ الضبّاط والدكتور، وفتحوا الزنزانة وأخرجوه، وكانت حالته تزداد سوءًا، وكلماته أصبحَت غير مفهومة.

ونقلوه إلى مستشفى سجن طره، وترك هذا الحادث أثرًا عميقًا من الأسى والحزن في نفوس الجميع...

ولكنّ الله الذي يُعزِّي المتّضعين (٢كو٧: ٦) عزّانا عندما رجع الأستاذ عادل إلينا مع غروب الشمس ماشِيًا على قدميه يمجِّد الله... لقد أنقذه الله من موتٍ مُحَقَّق، لئلا يكون لنا حزنٌ على حزن.

وفي اليوم التالي، نقلوه إلى مستشفى بسجن طُرَه...

وقد عانى الكثيرون بالحقِّ أتعابًا لا تُحتَمَل، ولكنّ النعمة كانت تسند الجميع، ويد المسيح الحانية كانت ترفع الآلام.

الدكتور نظمي «مريض بالقلب» لم يسمحوا له في الزنزانة حتّى بأدويته، وقد فاجأته نوبات القلب، وكانت هكذا قاسية... ولكن نشكر الله، كانت الصلوات المرفوعة كفيلة أن تُحَنِّن قلب الله في الوقت الذي تحجّرَتْ فيه قلوب البشر، وتمتّعنا بحنان الله الذي لا يوصَف، وقام معافىً ولم يصَب بضررٍ.

أبونا صرابامون كان يتألّم من مرضٍ صدريّ، وكانت أوجاعُه داخل الزنزانة من ضيق التنفس والاختناق شيئًا يجعل النفس تنعصر من الألم... ولكنّ الربّ قوّاه وشدّده ورَفَع الألم... كانت الصلوات ترتفِع من الجميع في أوقات تعبِهِ، وكان الربّ يرفع عنه الآلام.

أيضًا أبونا موسى... كاد يُقتَل من انحصار غازات داخل بطنه من عدم الحركة... وفي ليلة من الليالي الساعة ٣ بعد نصف الليل وصلَتْ الأوجاع إلى قمّتِها، هكذا استيقظ الجميع على صوت

الانزعاج من حول زنزانته، وجاء الدكتور على عَجَل، وجَعَلَهُ يَجرِي في طُرقة العنبر عِدّة مرّات، كان منظره مؤلمًا جِدًّا، وهو كاهن قد جاوز الخمسين وقصير القامّة، يتمشّى مُنحنِيًّا من وطأة الألم.

ونشكر الله الذي كان يلمِس بيده الحنونة مواضع الألم في أولاده ويشفيهم..

أضِف إلى ذلك الذين كانت صحّتهم أصلاً لا تحتمِل السجن.

مِثل نيافة الأنبا بيمن، رجل كثير الأمراض والأوجاع.. كيف جاز هذا الرجل فترات قاسية هكذا؟!

إنّها النعمة فقط... لأنّه كيف يمكن لرجلٍ يعيش ب ١/٨ كبده فقط، ولا يقوَى على مقاومة أقلّ الأمراض وطأةً... كيف يجتاز ظروفًا قاسية، لا يحتملها أقوى الشبّان وهُم في عنفوان الصحّة والشباب.

لقد سَنَد الربّ ضعفَ الضعفاء، وتمجَّد في كلّ حالةٍ على حِدَةٍ، بمجدٍ لا يوصَف... حتى أنّ الأنبا بيمن خرج من السجن وهو في حالة صِحّيّة جيّدة.

وليس هذا فقط، بل إنّ كِبار السنّ الذين كانوا بيننا،وبعضهم جاوز ٧٦ سنة... كان الربُّ سَنَدًا مُعِينًا وذراعًا قويّة.

مَن كان يَظُنّ أنّ شيخًا طاعِنًا في السنّ مثل أستاذ رشدي السيسي، أو دكتور شفيق، يحتمل مثل هذه الأتعاب، ويجوز كلّ هذه القسوة بنفسٍ راضية مملوءة سلامًا.

«كثيرةٌ هي أحزان الصديقين، ومِن جميعها ينجّيهم الرب... يحفظ الربّ جميع عظامهم، واحدة منها لا تنكسِر»

ومِمّا لا يُنسَى أيضًا، الآلام التي احتملها القمص جرجس رزق الله في عينِهِ التي كانت تلتهب بالتهاباتٍ قاسية، وكان قد أجرى بها عمليّة قبل دخوله السجن بأيام، وكانت عينُهُ عُرضةً للضَيَاع، ولم يكُن بالسجن طبيب عيون، ولكنّ السيد المسيح طبيب أجسادنا وأرواحنا، كان هو وحده ملجأنا في الضيق، وكُنّا نثِق أنّ أحدًا فينا سوف لا تحصُل له خسارة، إذ ليس لنا مَن يهتمّ بنا سِواه، وكُنّا نثِق أنّه لا يدعنا نُجَرَّب فوق ما نحتمِل، بل يُعطي مع التجربة المنفذ.

وهكذا تَوَجَّع معظم الموجودين، بآلام متنوعة وأمراض كثيرة، ولكن: «شكرًا لله الذي يقودنا في موكب نُصرته في المسيح كلّ حين، ويُظهِر بنا رائحة معرفته في كلّ مكان.» (٢كو٢: ١٤)

أبونا يوسف أسعد قاسَى آلامًا مُبرِحة مِن مَغَصٍ كلويّ، وهكذا دكتور عادل، ولكن نشكر الله أنّ جميعَهم قَبِل الآلام بفرح وشكر واحتمال وصبر، زاد من إيمانهم بعناية الله الفائقة وحبّه الحانِي.

يوم ٦ أكتوبر:

سبَقَ هذا اليوم رؤى غريبة وعجيبة حقًّا، من آباء وأخوة كثيرين، عزّاهم الربُّ بها في زنزاناتهم؛ فقد رأى أحد الأخوة قبل هذا اليوم بعِدّة أيام، رأى في رؤيا مصرع السادات ورآه مضروبًا بالنار في وسط قوّاته.

وقد رأى البعضُ مِنّا قبل رحيلنا عنها (الزنازين) بأيام قليلة رؤى عجيبة، فقد قال أحد العلمانين أنّه رأى كأنّ الزنازين تتصدّع بشروخ رهيبة وتؤول للسقوط ونحن بداخلها، وإذ بالمطوَّب الذكر البابا كيرلس السادس يَحضِر وهو متجهِّم، ويصرخ بالجميع هيّا اخرجوا، ويتعجّل ويستحثّ الكلّ حتى خرج آخر واحد. وآخرون رأوا رؤى مماثلة، فكُنّا نتعزّى أنّ الله حالٌّ في وسطنا، وقدّيسيه يحيطون بنا مع ملائكة أطهار، كوعد الربّ.

وأحد الآباء سمع صوتًا في زنزانته في الصباح الباكر من يوم ٥ أكتوبر يقول له: صَدَرَ الأمر؛ وقد ظنّ أنّ زميلَه بالزنزانة يُحَدِّثه، فلما ردّ عليه بقولِهِ: أيّ أمر؟ ماذا تقول؟ وجد أنّ زميله راقدٌ بجواره نائمٌ نومًا عميقًا، فتحقَّق أنّ الأمرَ صدَرَ من الله.[١]

---

١ كان أبونا لوقا نفسه هو من سمع «صدر الأمر»، وكان أبونا صموئيل ثابت نائمًا إلى جواره، فأستيقظَ على صوت أبونا لوقا وألحّ عليه أن يحكي له ما سمعه. ويُعتَقَد أنّ إدارة السجن قد سمعت الحوار بينهما قبل موتِ الرئيس السادات بساعات.

وهكذا تعزّى الآباء بمواعيد الله الصادِقة، أنّه يُعطي مَخرَجًا لأولاده من كلّ ضيقة.

في يوم ٤ أكتوبر جاء مأمور القسم في الصباح، وقال إنّ الرئيس أصدر أمرًا بأنّ المتحفَّظ عليهم سوف يحصلون على زيارة استثنائية من الأهل بمناسبة عيد الأضحى.

كم كان هذا الخبر قاسيًا يا ربي... لا نريد أن نَرَى أحدًا ونحن في هذه الحالة... نحن نرضَى بالآلام، ونشكُر الله، فلماذا يُزاد على هذه، قسوةً على الأطفال الصغار، والأمّهات والزوجات والشعب المسكين... لقد كدَّرنا هذا الخبر جِدًّا.

وفي صباح ٥ أكتوبر، جاء المأمور ليقول أنّ غدًّا ٦ أكتوبر سيزورُنا نيافة الأنبا صموئيل، مع مندوبٍ مِن وزارة الداخلية، وأنّ الأوامر ألاّ نتكلّم معه مُطلَقًا عن أحوالنا في داخل السجن، ولكن إن كان حديثًا عن المحامين وأوضاعِنا في الخارج فليكُن...

وفي يوم ٦ أكتوبر في الصباح ابتدأت الاستعدادات لزيارة الأنبا صموئيل... استعدادات رهيبة.. مأدُبة غذاء تُقَام... سمحوا لكلّ واحد فينا أن يأخذ حمّامًا، وإذا كان عنده ملابس للكيّ أو للتنظيف... وبدأ العنبر يموج بالحركة غير العادِيّة من الترتيبات.

وفي الساعة الواحدة ظُهرًا هدأت الحركة تمامًا، الذين في الحَمّام أُدخِلوا إلى زنزانتهم... في الساعة ٣ أُغلِقَ العنبر نهائيًا وقالوا: «تصبحوا على خير»، وسألنا: «أين الأنبا صموئيل»...

فأجاب المُخبِر علي: «اعتذر»، وساد صمتٌ عجيب، تُرى ماذا حدث ؟!

كيف تتبدّل الأمور هكذا سريعًا...

وقضينا الليل كالعادة، مُجرّد شكوك تساور البعض.. تُرى ماذا حدث؟

ثم أشرق صباح ٧ أكتوبر، وفي الثامنة صباحًا جاء المأمور وكلّ الضباط... حركة غير عادية.

وكان سمير تادرس يسكن زنزانة ٢٩ بجوار الباب، وكان لَمّاحًا بشكل يفوق العقل، وكان قد استرقّ السمع لراديو مع أحد العسكر المحيطين بالسور الخارجي للسجن، فسمع قرآنًا طول الوقت، فاستنبط أنّ شيئًا قد حدث، وتوقّع اغتيال الرئيس... فلما جاء المأمور بادره سمير قائلاً: «الراجل مات»، فأخرجَهُ المأمور خارج الزنزانة واستفسر منه: «مِن أين عرفت؟» فتحقّق أنّ كلامَه صِدقٌ... ثم أدخله الزنزانة وأمره أن يُبَلِّغ العنبر أنّ الزيارة أُلغِيَت، فقال سمير بصوت جهوري: «الزيارة ألغيت لأنّ حالة الطوارئ أُعلِنَت في البلاد.»

مَرّت لحظات رهيبة سادها الصمت.

ثم أمَرَ المأمور بفتح الزنازين على أن يَبقَى كلٌّ في زنزانته بلا حركة... وقد كان.

ثم وقف المأمور في نهاية الطُرقة (بجوار زنزانتي) وقال: «أرجو ألاّ يُعَلِّق أحدٌ بكلمة واحدة على ما أقول... مفهوم!!»

ثم قال بصوتٍ اصطنع فيه الأسف والحزن: «أُعلِنَت حالة الطوارئ لوفاة رئيس الجمهورية» فبادرتُهُ للحال: «انضرب بالنار؟»... فقال: «أغلِق الزنازين» وللحال بدأ الجنود في إغلاق الزنازين وصار صراخٌ رهيبٌ في العنبر..

اختلط الأمر، ووقف الذهن تمامًا عن التفكير... أهكذا سريعًا صار الأمر؟ بَكَى بعض الآباء من هول الموقف، وبَكَى البعض تأثُّرًا، وصَرَخ البعضُ موقِنًا أنّ الفَرَج أصبحَ وشيكَ الوقوع. وقضينا ساعات رهيبة، ترى ماذا حدث؟

لقد انعقد ذهنُنا عن التفكير... لا سيّما أنّ الغموض الشديد الذي كانوا يحيطونَنَا به زاد مِن شلّ التفكير.

كان الضبّاط يحاولون بكلّ طريقة عدم تسرُّب أيّ معلومات صحيحة إلينا... وعندما سألنا مَن نشعُر أنّهم طيّبون معنا... كان الجواب لقد أصيبَ الرئيس بنوبة قلبيّة بعدما حضر العرض العسكري، وذهب إلى منزله وتوفي هناك.. وكثير من الكذب، حتى أيقننا أنّه يستحيل على ضابط السجون أن ينطق كلمة حقّ، وأنه أصبح الكذب هو الشيء الطبيعي الذي يعيشونه.

الأفكار:

على أنّه بعد يومٍ تقريبًا، كان لابد لنا أن نعرِف الحقيقةَ ولو مُشَوَّهة... حادث المنصّة، ولكن ليس بتفاصيل، وهنا بدأت الأفكار، تُرى كيف حال البلد في خارج الأسوار... من أُصِيب في حادث المنصّة؟ ما هي أبعاد الحادث؟

وبعد أيّام قليلة، عرفنا شيئًا عن أحداث أسيوط، وكانت مخاوف كثيرة من نحو مصير البلد، إذا وقعت فريسة في أيدي من لا يُقَدِّر المسئولية، ويستولي على الحكم بطريقة بشِعة، كلّها قتل وتدمير.

المحاكمات:

بعد ١٥ يومًا من وصولنا إلى السجن، بدأت المحاكمات لَدَى المُدَّعي الاشتراكي. كان يأتي المُخبِر الساعة ٦ صباحًا ويفتح زنزانةً في السرّ، ثم يأمُر أحدَ الموجودين فيها أن يلبس ملابسه في ١٠ دقائق، ثم يصطحبه معه إلى الخارج.

وهكذا فعل لمدّة خمسة أيام مع عشرة من الآباء... اثنين كلّ يوم.

وعندما كانوا يغادرون العنبر، كان الجميع يشتركون معًا في صلاة حارّة، يرافِقون بها إخوتهم إلى أن يعودوا من التحقيق. كانت قلوبنا معهم كلّ يوم.

وقد وَصَفَ لنا الآباء الذين ذهبوا رحلتهم إلى مَبنَى المُدَّعي الاشتراكي... كانوا يأخذونهم في الأساور الحديدية وأمامهم بوليس نجدة، وخلفهم عربة مملوءة جنود الأمن المركزيّمدجّجيالسلاح. ويمرق هذا الموكب بسرعة،وأصوات عربات بوليس النجدة في شوارعِ القاهرة، إلى أن يَصِلُوا إلى هناك.

وقد حدث في الأيّام الأولى، بينما كان أحد الضبّاط يضَع القيود الحديديّة في يد أحد الآباء، أن انحنى هذا الأب على القيد الحديدي يُقَبِّله؛ فدُهِشَ الضابط وبادره قائلاً «ماذا تفعل؟»

فقال: «إنّي أُقَبِّله؛ نحن نحبّ الآلام من أجل المسيح»... فلم يُجِبْ الضابط، بل ظلّ مندهشًا من هذا الأب، طوال رحلة الذهاب والعودة.

ومن الطريف أنّ الآباء عندما كانوا يعودون من التحقيق، كانوا يقُصُّون ما حدث معهم؛ وعندما أرادوا أن يتكلّموا بطريقة مستورة، كانوا يقُصُّون حكايتهم كأنّها حدثت في السنكسار،فكان يقول أحدهم: سأقصّ لكم عن قديس هذا اليوم...حَدَث معه كذا وكذا إلى آخِرِه.

الله يعمل في قلوب العاملين في السجن:

من الأمور الفائقة للعقل، التي نُرجِعها إلى عمل نعمة المسيح، إذ هو وحده صاحب الفضل، أنّ الضباط والسجّانين كانوا كَمَن لمست النعمة قلوبهم، فكانوا يأتون أفعالاً واقوالاً أبعد ما يكون عن طبيعة العاملين في هذا المجال. لأنّ طبيعة العمل والمناظر التي يعايشونها في حياتهم اليومية في السجن، جعلت مشاعرهم تتحجّر، فلا يَرِقُّون لبُكاء، ولا يتحرّكون لظلم، ولا ينزعجون لقسوة.

بل على العكس، العنف والضرب والشتائم بأفظع العبارات والقهر هو العُرف السائد مع المسجونين... إنّه مجتمع غريب حقًّا داخل الأسوار.

وما أن تعامَل هؤلاء مع الآباء، حتّى تغيّرت الصورة تمامًا بفعل النعمة.

هل تتصوّر أنّ أحد السجّانين في وادي النطرون، وهو رقيب كان مُكَلّفًا بحراستنا، وكانوا قد خصّصوا لنا عنبرًا خاصًّا، ألحقوا به فناءً صغيرًا أمامه، حوّطوه بسور عن المباني. فكان الرقيب يقضي معنا معظم الأيام من الصباح إلى الغروب، وقد مَكَثنا في ليمان وادي النطرون ٢٤ يومًا، وفي يوم ترحيلِنا من وادي النطرون لنعود إلى سجن المرج مرّة أخرى اذ كان عمّ صبحي يودعنا، كانت دموعه تجري على خدّيه وهو يقول: أنا لم

أعُدْ أصلُح سجّانًا مرّة أخرى. إذ تغيّرَت طباعُه وصار رقيقًا مُحِبًّا مُجامِلاً، وكأنّه نسي بهذه الفترة طِباعَهُ الأولى وأخلاقيّات السجّان.

- في ثاني يوم لخروجي من السجن، ذهبتُ لأزور الآباء وآخُذ الأمانات التي تخصّني. وفي مكتب المأمور، قابلنا بكلّ الحبّ والقُبلات، ورفَع يديه إلى فوق وقال: «ربنا ما يُعِيد هذه الأيام ثاني.»
- حقًّا كان هذا الرجل قد لمست النعمة قلبه فصار رقيقًا إلى أبعد الحدود.

أتذكّر عندما زارتني زوجتي وأولادي لأوّل مرّة، كان هذا بعد ثلاثة أشهر. وكانت ابنتي الصغيرة (تسع سنوات وقتها) قد دخلَت من باب السجن، وهي تجري كالمجنونة تبحث بنظرات متلهّفة رهيبة بَحثًا عنّي، **وكنتُ في طريقي من العنبر إلى مكتب المأمور ر افِعًا قلبي للربّ يسوع أن يسند ضعفي حتّى لا أنهار، وتوسّلت إليه بجميع قدّيسيه أن يؤازر نفسي، لأنّي أعلم أثر هذه الأمور العاطفيّة على النفس. فكنتُ أن طلبتُ إليه لكي أشهد لاسمه بلا ضعفٍ، ليس من أجل نفسي بل من أجل الآخرين.**

وكان الربّ أمينًا في مواعيده، إذ سندني بقوّة طوال مُدّة الزيارة فلم أهتزّ.

ما أن دخلت إلى مكتب المأمور حتى قفزَت صغيرتي بصراخ رهيب، وطوّقت عنقي بذراعيها، ورِجلاها الصغيرتان في وَسَطي...

لقد كان مشهدًا مؤثّرًا، إلى جانب منظر الباقين الكبار، الذين لم يستطيعوا أن يضبطوا مشاعرهم؛ زوجتي وابني وأخي...

كان المأمور جالسًا إلى مكتبه ممسِكًا بالجريدةِ في يديه... رفع الجريدة إلى فوق وأخفى وجهه، لكي لا يرى أحدٌ دموعه، ثم دَلَف إلى غرفة مُلحقة بالمكتب إلى بضع دقائق، عاد بعدها وعيناه ووجنتاه تشهدان لقلبه الرقيق.

لم نكن بالطبع أوّل مَن دخل السجون، فالسجون تشهد كم احتوت أسوارها من جميع أصناف الناس... كم من مآسي وكم من صور موجِعة.

ولكنّني لست أصدق أنّ مأمور السجن كان يتفاعل هكذا مع الظروف التي تَعرِض له...

لأنّنا رأيناهم يتعاملون مع معتقَلين آخَرين، من كبار الشخصيات وتحت نفس الظروف... فكُنّا نندهش ونمجِّد المسيح الذي وضع في قلوبهم من نحوِنا هذا التعطف الفائق.

قال لي أحد الآباء... وقد شهد زميلُه في الزنزانة بصحّة هذه الحادثة، أنّه في ليلة من الليالي ونحن في الزنازين، ولم يَمضِ شهرٌ علي اعتقالنا، أنّ المأمور فتح باب الزنزانة، وتوسّل إلى أبونا أن يصلّي من أجل أولاده المرضى، وأعطاه أسماءهم في سرّيّة كاملة...

لقد عمل الله في قلوبهم.. حتّى إحساسهم بقداسة بعض الموجودين وثِقتهم في روحانيّتهم كان نوعًا من الإفراز، يندهش له

الإنسان. أحد السجّانين كان يقول لي دائمًا: ألَم يُلقَ في السجن كثيرٌ من القدّيسين؟ وكنتُأندهش وأمجِّد المسيح أنّ التعزية تأتي حتى من السجّانين، وكان يقول أنّ سيّدنا يوسف سُجِن، والأنبياء تألّموا، وربنا حوّل صبرهم خيرًا.

كان المأمور دائم السؤال عن صحّتي... ربّما لأنّني في الفترة الأولى كنتُأبدُو هزيلاً، إذ فقدتُ حوالي ٥-٧ كيلو من وزني.

وكان عندما يدخُل إلى «سجن التجربة» للتفتيش أو المرور كلّ يوم، كان يتظاهَر أنّه يصيح فيَّ ويرفع صوته، «واقف كده ليه؟» ويأمر السجّان «افتح الزنزانة دي»،وحالما تُفتَح الزنزانة ينتهز فرصة بُعد«عَمّ علِي» (رجل المباحث)، ويقول بصوت خفيض حزين «مالك بتخِسّ ليه؟»«أنت لماذا لا تأكل؟» صَلِّ ربنا يفرجها.

هكذا النقيب مجدي، الطبيب خريج جامعة الأزهر، كم كان رقيقًا حلوًا معي، كم أعطاني الربّ نعمةً في عينيه.. شيء لا يصدّقه العقل.

كان على خلاف التعليمات، يُخرِجني خارج الزنزانة من الصباح، من وقت بداية الفُسحة... حتّى آخر زنزانة ربّما مدّة ٧ ساعات... وكنت أتوسّل إليه أحيانًا أن أدخل إلى زنزانتي، لئلا يُسيء إليه أحدٌ بسببي فكان يرفض.كم تألّم هذا الضابط من أجلنا...

فقد رقّ قلبه لنا ليلةً، فأمر ففُتِحَت الزنازين كلّها مدّة ساعة لتغيير الهواء، لأنّ رائحة الزنازين كانت لا تُطاق فعلاً.

وكان أن قُدِّم للمحاسبة في اليوم التالي، بسبب شكوَى المُخبِر «علِي» الذي كان غيرَ رحيمٍ على الإطلاق، وقد كانوا على وَشَك أن يوَقِّعوا جزاءً صعبًا على النقيب مجدي.

في اليوم التالي، عامَلَ»مجدي» المخبر «علِي خليفة» بقسوة شديدة، فألزمه بالوقوف معظم ساعات النهار وكنتُ أتوسّط بينهما، وحاولت في وقت الفسحة أن أطيّب خاطر «عم علِي» وأستسمِح «مجدي» الضابط، ومنذ ذلك الوقت لانَ (رَقَّ) قلب «علِي» من نحوي بشكل غريب، حتى أنّه كان يَفتَح زنزانتي، و يتركها عَمدًا لمدّة طويلة.

بل أنّه في يوم عيد الأضحَى (٨أكتوبر)، حضروا في الصباح الباكر ومعهم اللحمة والمَرَق حسب عادتهم، وبعد أن وَزّع على كلّ الزنازين، عاد «علِي» إلى زنزانتي وأصرّ أن يملأ لي طبقًا آخر من اللحم، رغم إصراري على الرفض.

و كان يقول: «هل يا أبونا لو رُحنا لَك إسكندرية تِرضَى تقابلنا؟»... وكنت أؤكِّد له أنّنا نحب الجميع، وأنّه إنسان أمين على تنفيذ التعليمات، وكُنّا نحبّه حقيقة... وكُنّا نصلّي في إحدى الأمسيات، وكان أحد الآباء يصلّي بكلّ قلبه، ويتوسّل للمسيح من أجل كلّ العاملين بالسجن، ويطلُب لهم إحسانًا من الله، ولا سيّما «علِي» الذي خصّه بالطلبة أكثر من الكلّ.

- أذكُر أنّنا بعد خروجنا من السجن، ربّما بأكثر من شهرين، كنتُ في مطار القاهرة أستقبِلُ أحدَ الأحبّاء قادِمًا من الخارج، وكان يسير معي أصغر أخوتي، وفوجئنا بِمَنْ يُطوِّق عُنقي من الخلف، فلمّا التفتُّ إليه أخذني بالأحضان وقبلات حارة و...

كان النقيب مجدي في ثيابٍ مَدَنيّة، ووقفنا نُسَلِّم على بعضنا مُدّة طويلة، بعدها سألني أخي مَن يكون هذا الأخ؟ أجبته أنّه أحدّ ضُبّاط السجن. فاندهش لهذا الحبّ العجيب، والحرارة التي قابلني بها.

عم صبحي:

بعد رجوعنا من وادي النطرون إلى سجن المرج مرّة أخرى، كان أحد السجّانين (الشاويش صبحي) هو أحد المكلَّفين بحراستنا، وقد تعرّفنا عليه لأول مرة، وبعد أنتوطّدت العلاقات بينناكان يَأنَس لنا كثيرًا، ويقُصّ علينا ما لم نكُن نعرفه مِن ظروف الأيّام الأولى. قال مَرّة أنّه عندما رآنا في أوّل يوم، وحَسَبَ ما صوّرونا لهم، تَصَوَّر أنّنا مُجرمون فِعلاً، وقد كان أوّل كاهن دَخَلَ إلى سجن المرج أب فارع الطول عريض المنكبين، وعندما كلّفه المأمور باصطحاب الأب إلى الزنزانة، أنّ عمّ صُبحي خاف من منظره، وتَصَوَّر في نفسه أنّه لا يستطيع أن يصطحبه بمفرده، فأشار إلى زميل له سجّان أن يرافقه، ولما أمسك بذراع الكاهن وجده وديعًا متواضعًا لا يتكلّم فاندهش.

وقال لم أكُن أتصوّر أن تكونوا بهذه الصورة التي رأيتُها، لأنّي في حياتي لم أكلِّم قسّيسًا، ولا تعاملت مع أحدٍ هكذا، ولكن عندما عرفتكم وعايشتكم عرفتُ الحقيقة التي شوّهوها أمامنا. وقد كان الرجُل عَفًّا جدًّا، بصعوبة شديدة كُنّا نعطيه شيئًا من المأكولات أو خلافه.

وذات مرّة كنتُ أكلّمه عن القسوة التي يعاملون بها المسجونين، فكان يقول أنتَ لم تعرف مثل هؤلاء، فواحد منهم يستطيع أن يُخيف شارعًا بأكمله، لأنّهم عناصر إجراميّة.

وذات مرة وأنا أتمشى في طُرقَةٍ بين الفناء، اقترب إليَّ عمّ صبحي وقال: «يا أبونا لوقا اسمح ادخل العنبر الآن، لأنّي مضطرّ أن أشتم المسجونين»؛ وكأنّ الرجل كان يحتشم مِن أن يُخرِج من فمِهِ كلمة قبيحة أمامنا!! يا للعجب، لقد صار واضحًا أنّ هذا الكلام لا يناسب الآباء، بل أنّه أصبح من العيب أن يتلفّظ بلفظٍ نابٍ أمام أحدنا.

الانتقال إلى وادي النطرون:

قضينا في زنازين سجن التجربة داخل سجن المرج مدّة ٤٤ يومًا، توالت فيها الأحداث وكان أهمّها مقتل السادات يوم ٦ أكتوبر، وكان قلبنا وفكرنا بعد هذا الحدث ينحصر في مصر ومستقبل مصر، وسلامها من كلّ اضطراب، بل أنّ صلواتنا

وتوسُّلنا إلى الله كانت هي ملجأنا الوحيد، وقد عَظَّم الربّ الصنيع، فحفظ مصر من عبث العابثين ومن كيد الأشرار، وعاد إلى مصر سلامُها واستقرارُها.

صلاة تجنيز:

وكان بعد موت السادات بيومين، وقد علمنا أيضًا بنياحة الأنبا صموئيل في حادث المنصّة، أن طلَبَ الآباء إلى مأمور السجن أن نعمل صلاة ترحيم جنائزية للأنبا صموئيل، فاستأذن المأمور الإدارة في ذلك فسمحوا لنا.

فخرجنا من الزنازين ووقفنا في الطُرقة المتوسّطة، وتقدّم الآباء الأساقفة ورأسوا صلاة التجنيز بالألحان الحزينة، كم كانت مؤثرة وعميقة.

وقد شاركَنا المأمورُ وضبّاط السجن في هذه الصلاة، رغم تأزُّم الأحوال في الخارج، والظروف غير المستقرّة التي كانت تجتاح البلاد.

وقد علِمنا بعد ذلك أنّ حركَات شغب قد حدثَت في أسيوط من الجماعات المتطرّفة، راح ضحيّتها كثير من رجال الإدارة، منهم ضابط مسيحي كان يَشغَل مركز نائب مدير الأمن في أسيوط... ذبحوه في مكتبه.

وفي آخر ليلة قضيناها في داخل الزنزانات، كانت هناك حركات غريبة.. مدير مصلحة السجون وبرفقته ضبّاط كبار زاروا «سجن التجربة»، وتأمّلوا الزنازين واستحكاماتها ونحن لا ندري شيئًا، وكانوا قد قرّروا أن ينقِلوا إليها المقبوض عليهم من الجماعات في أسيوط، فلم يجدوا مكانًا أكثر إحكامًا وأكثر إيلامًا من هذه الزنازين، حينئذ أمروا بنقلِنا مِنها، ليس حبًّا في التخفيف عنا، ولكن احتياجًا للزنازين.

† ثم كان يوم الجمعة ١٩ أكتوبر ١٩٨١

ابتدأ اليوم كعادة الأيام، إلى أن انتهت فترات الفسحة، ثمّ جاء أحد الضبّاط، ونبّه على الجميع بأن يُجَهِّزوا كلّ واحدٍ نفسَه لأنّنا ماشيين من هنا.

وعبثًا حاولنا نسأل، إلى أين؟

لأنّ جميعهم برأيٍ واحد كانوا يؤكّدون أنّهم لا يعرفون شيئًا.

ثم حوالي الساعة الخامسة مساءً، جاءت التعليمات بالرحيل.. ولك أن تتخيّل هذا المنظر المؤثّر ٨ أساقفة بزيّهم الكهنوتي و٢٤ كاهنًا و٢٤ علمانيًّا.

حمل كلّ واحد منهم متاعَه الذي في الزنزانة، بعض الملابس، وبعض المأكولات، وهي كلّ ما يملك.. وطبعًا لا توجد شُنَط

أو كراتين لحمل الأشياء، فتصرّف كلّ واحد بحسب الإمكانيات المتاحة، البعض عمل (بؤجةً) من جلباب، ربطه من عنقه، ثم عبّأ فيه ما تحتويه زنزانته.

نظرتُ إلى خلف ونحن نسير، فتذكّرت ما قال الربّ لحزقيال النبيّ أن يُهيِّئ لنفسه أُهبَةَ جَلاءٍ ويحملها على كتفه، ويَنقُب لنفسه في الحائط، ويهرب أمام جماعة بني إسرائيل. (حز١٢: ٣-٥)

وتذكرتُ أيضًا خروج بني إسرائيل، حين حملوا العجين غير مُختَمِر، وأخذوا أمتعتهم وعبروا من مصر. (خر١٢: ٣٤)

كان المنظر مؤثِّرًا، ولا سيّما أنّنا كُنّا نُسَاق إلى حيث لا نَعلَم.

لقد حكَى لي بعض المساجين، بعد ما رجعنا مرّة أخرى إلى سِجن المرج (وهو غير مسيحي)، أنّه لم يضبط نفسه عندما رآنا في هذه الحال، وكان يُرَدِّد في نفسه ذات المعنى الذي قاله اللصّ اليمين «**نحن بعدلٍ جُوزينا، أمّا هذا فماذا فَعل؟**». **(لو٢٣: ٤١)**

تَجَمّعنا أمام مكتب المأمور، ثم أخذ كلّ واحد بعض الأمانات الموجودة من ملابس أو شنط أو خلافه، ثُمّ مع غروب الشمس، أركبونا عربَتين من عَربات المسجونين، كُلنا مع ٥٦ مَرتَبَة مع عدد ٢ بطّانية لكلّ واحد.

ولكَ أن تتخيّل ٥٦ شخصًا، مع المراتِب والبطاطين والمنقولات، حُشِروا جميعًا في عربتين.. العربات بلا كراسي أو كنب، وبعد غروب الشمس، بدأ الموكب في التحرُّك مُحاطًا بعربات البوليس والأمن المركزي، وسلّمنا فصِرنا نُحمَل كما يقول الرسول (أع٢٧: ١٥)، لا نَعلم إلى أين؟!

وقد اعترى البعضُ مِنّا خوفٌ، لا أعلم ماذا كان مصدره؟ ربّما المجهول، ولكن الذين سلّموا حياتهم بين يديّ المسيح، لماذا الخوف؟

وقد طلب أبونا تادرس من الأساقفة الموجودين أن يقرأوا لنا التحليل وكأنّنا مُقبلون على الموت!!

وقد زاد هذا من مخاوف الخائفين...

ثم بدأت التكهّنات في الطريق كلّما سار الموكب في أحد الشوارع، وتعلّق معظمنا في شبابيك العربة، وهي صغيرة وعالية ومغطّاة بالسلك. وكان منظر البلد يبدو طبيعيًّا على الرغم من تحذيرات مأمور سجن المرج والضباط أن نلتزم الهدوء، ولا نرتّل في الطريق بصوتٍ مسموع، لأنّ البلد في حالة اضطراب، فكُنّا ننظُر وإذا كلّ شيء عادي، الناس ماشون في الشوارع وجالسون على المقاهي، والأولاد يلهون ويرُوحون ويجيئون، والدكاكين مفتوحة، وكلّ شيء طبيعيّ للغاية.

وكانت أكثر المخاوف التي تراودالبعض أن يُرَحِّلونا إلى سجن القلعة، والخبير بالسجون مِنّا -أي سمير تادرس- هو الذي وصف لنا سجن القلعة بأنّه أقسى السجون في مصر.

ثم سار الموكب في شارع صلاح سالم وعَبَر على القلعة دون توقُّف، فتهلّل البعض بالفرح، وتوقّعوا أنّنا لابد ذاهبون خارج القاهرة، ربّما إلى الفيوم أو أحد الضواحي.

ثم توقّفَت التخمينات تمامًا عندما توقَّف الركب أمام بوابة سجن ١ بليمان وادي النطرون، وكان ليلاً.نزلنا واستلمونا بالعدد، وكان استقبالهم لنا مُلَطِّفًا للخواطر، مُريحًا للنفوس.

كأنّنا بدأنا نتنسّم نسيمَ بعضِ الحرّيّة، عندما وقفنا ساعة أو بعض الساعة في الهواء الطلق، ريثما تَكمُل إجراءات «التسكين» كما يقولون.

وحالما انتهينا من ذلك، دخلنا إلى عنبر صغير بِه أَسِرَّة حديد قديمة، والعنبر في الأصل كان يستخدم كمستشفى للسجن، وكان كلّ سرير من ثلاثة طوابق.

ولك أن تتخيّل مقدار السعادة الغامرة التي عِشناها هذه الليلة، حتى كدنا نسهر إلى الصباح، ذكريات أيّام الزنزانة، كلّها بتفاصيلها، ومعاملات السجّانين والضبّاط و... ونوادر عمّ عبد الغني... وخلافه.

وقد سعدنا بأنّنا صِرنا نتنفّس الهواء بسهولة، وإنّنا أصبحنا نتكلّم مع بعضنا بدون مانع أو عائق، لأنّ كثيرين مِنّا لم يكونوا يعرفون بعضًا سوى بالصوت فقط.

وقد أسعدَنا في إقامتنا في ليمان وادي النطرون التي امتدت إلى ٣٤ يومًا، أنّنا كُنّا نأخذ فسحة في فناء السجن لمدة ساعة صباحًا وساعة مساءً في الأيام الأولى.

إلى أن بنَوا لنا أمام باب العنبر حوشًا صغيرًا، وجعلوا له بابًا حديديًّا، فكانوا في الصباح يفتحون باب العنبر، ولنا أن نخرج إلى هذا الحوش الصغير (حوالي ٦×٣متر) ثم يُغلَق باب العنبر الساعة الخامسة مساءًا، فكانت في نظرِنا نعمة عظيمة.

على أنّ الآفة الكُبرَى في هذا المكان كانت هي عدم النظافة، فالمكان مُهمَل والمياه قليلة. كان موتور السجن يشتغل ساعةً في النهار فقط، ودورات المياه يغذّيها برميل في أعلى المبنى، وكان مثقوبًا، فلم يكن هناك صرف في دورات المياه، وكان يوجد برميلين في داخل الدورة.

أضف إلى ذلك كميّات من الصراصير لم أرَ قبلها في حياتي. كانت السراير مصنوعة من مواسير حديد وكأنّها كانت مَحشُوّة تمامًا بالصراصير.

فأعمَلنا فيها البيروسول، وكانوا قد تعطّفوا علينا بعلبة أو علبتين، ولكن هيهات فجيوش الصراصير أقوى وأعتى.

ويبدو أنّ هذا العنبر قد استُخدِمَ فترة من الزمن كمخزن للسجن، فتربّت فيه كمية لا بأس بها من الفئران، وقد أتاح لها المخزون من الحبوب فرصة مواتية للسُّمنة والنمو، فصارت وكأنها فئران من نوعٍ خاص كمًّا وكَيفًا.

أذكر نادرةً طريفة في ليلة من ليالي سجن وادي النطرون -وقد كانت الليالي في ذلك المكان تبدو كئيبة جدًا- أن استيقظ كلّ العنبر تقريبًا على صياح البعض مِنّا، ولما استطلعنا الأمر وجدنا أنّ فأرًا كبيرَ الحجم كان في مسابقةٍ مع زميلٍ له للجري السريع، وكانت أرض الملعب بالنسبة لهم هي الدور الثالث من السراير، وقد كانت كلّها متراصّة متلاصِقة. فلمّا وصلا إلى نهاية العنبر، ارتدّا بسرعة عائدَيْن لتكملة المشوار، وكانا كلما قفزا على أحد أنّه يصحو مذعورًا. فلمّا اتّضح الأمر أنّه لا يتعدَّى كونَه سباقَ فئران، حوّلناها إلى ضحك وتَنَدُّر.

أماّ ما كان أشدّ إيلامًا ومرارةً في أيام سجن وادي النطرون، فهو مأمور السجن؛ لأنّه كان إنسانًا غريب الأطوار قاسي القلب، من النوع الساديّ الذي يحبّ تعذيب الآخرين ويتلذّذ بذلك.

فكان يحلو له أن يضرِب المساجين بقسوة أمامنا، ونحن في الحوش في فسحتِنا في الأيام الأولى، وأذكُر مرّةً أنّه ضرب سجينًا ضربًا وحشيًّا في مكتبه، حتّى اضطرَّ السجين أن يبتلع قِطَعًا من زجاج شباك المكتب الذي انكسر أثناء ضربِهِ، لعلّه يموت فينجو من عذاب المأمور.

وعلى الرغم من ذلك لم يُشفِق عليه، بل أمَرَ أن يُجلَد!! ومن باب الفضول وددت لو أرى عمليّة الجلد.. يا للوحشية...!! لقد جَرَّدوا السجين تمامًا من جميع ملابسه، ثم طرحوه أرضًا (حوالي ٨ جنود) ووطأَهُ المأمور بقدمِهِ على جسده العاري، وظلّ يُشبِعُه ضربًا بالكرباج، والسجين يصرخ ويستغيث بمَن لا يَرحم.

وقتها كان يقف إلى جواري في أعلى السرير (في الدور ٣)، في الشبّاك السلكيّ المُطِلّ على مكان الجَلد، الأنبا بيشوي. وقتها لم أضبط قوة وكاد يُغشَى عليّ من هول ما رأيت...

وبعدها بقليل وقفنا نُصلِّي صلاة الساعة السادسة، وأذكُر أنّني ما أدركتُ مَعنَى آلام الربّ وجلداته وإكليل شوكِهِ مثلما فعلتُ في ذلك اليوم، إذ كان منظر الجَلد ماثلاً أمامي بطريقة عمليّة، بكلّ تفاصيله المأساويّة.

ومن جَرَاء قِلّة النظافة بالعنبر، أُصِيب البعضُ مِنّا بنزلات معويّة، وكانت صِحّة الأنبا بيمن تزداد سوءًا.

على أنّ فرصة وادي النطرون كانت مواتية بالأكثر لعمل الصلاة والقراءة والدرس، وكان الأنبا بيمن يقود حلقات الدرس كلّ مساءٍ، فدَرَسنا رسائلَ للقديس بولس الرسول، وتمتّع الجميع بأوقات للتأمُّل.

وكان بيننا مَن يُحِبُّون التسبحة: الأنبا تادرس والأنبا فام. وكانوا يبكِّرون في الصباح يصلّونها بفرح، وانضمّ إليهم عددٌ ليس بقليل يسبّحون.

كانوا يُطفِئون النور في العنبر الساعة التاسعة مساءً، أو العاشرة على أكثر تقدير، وكُنّا لابد أن نخلد إلى النوم بالأمر، أو قد يمارس البعض صلواتهم المحفوظة أو الصلوات الارتجالية. وفي الصباح الباكر كان الآباء المُحِبُّون للتسبحة يبكِّرون للصلاة كلّ يومٍ، وكان بعضهم يحفظ أجزاء كثيرة عن ظهر قلب، ولكن في كثير من الأحيان يحتاجون إلى القراءة من الأبصلموديّة، ولكن تظلّ مشكلة النور قائمة.

ولكنّ السجين لا يعدِم حِيَلَه دائمًا، لأنّ السجن يُعلِّم الإنسان أنّه مِن الإمكانيّات القليلة المتاحة لابد أن يخترع ما يسدّ به حاجاته. فاخترع الآباء وسيلةً جيّدة لعمل مصباح للساعات الأولى من النهار. فإحدى العِلَب الصفيح أصبحت هي جسم المصباح، وأشرطة من بطانيّة قديمة استخدموها كفتيلٍ. ثمّ حَلُّوا مشكلة الزيت بأن كانوا يجمعون قليلاً من زيت الفول المدمّس كلّ يوم. وهكذا تغلبوا على مشكلة النور فكانوا يُسَبِّحون بلا مانع، وبفرحٍ كثير.

وقد كان أبونا تادرس يستيقظ مبكّرًا هو الآخر، ورغم أنّه لا يحفظ ألحان التسبحة ولكنّه كان يشترك مع الآباء، بل أحيانًا

كان يصلّيها بألحانه الخاصة، وكُنّا نقول له احتفظ بألحانك الخاصّة لنفسك وصَلّها سِرًّا، لأنّنا سوف ننسى الألحان التي حفظناها.

وقد عملنا عشيّات -بدون رفع بخور- في كلّ المناسبات الكنسيّة، وأعياد القدّيسين التي مَرَّت بنا أثناء إقامتنا في وادي النطرون.

ومن الطريف أنّنا في جميع المناسبات وجدنا صُوَرًا للقدّيسين، وكُنّا نطوف بهم داخل العنبر مع أنّها من الصور الصغيرة المقاس التي توضع داخل الكتب الصغيرة أو الأجبية (٦× ١٠ سم)، ولكن هذه العشيات اتّسمَت بتعزية خاصّة، لاسيّما أنّنا كُنّا نشعُر أنّنا نعيش في بريّة القديس مقاريوس الكبير.

وكم كان إنجيل العشيّة، عندما يقرأه أبونا صرابامون عبده بصوتٍ كنسيّ مُعَزٍّ، يفيضُ نعمةً على السامعين، وتعزيةً تُحدِر الدموع من المآقي (تنساب لها الدموع).

وأذكُر أنّنا عَيَّدنا للشهيد العظيم مارجرجس ٧هاتور – ١٦ نوفمبر، وللشهيد مارمينا العجايبي، ونحن في سجن وادي النطرون.

كانت تباشير انفراج الأزمة بعد موت السادات تلوح في الأفق من بعيد، فبعد أن حلَلنا بهذا السجن بأيّام نقلوا إلينا خَبَرًا مُفرِحًا، أنّه سُمِحَ لنا أن نقرأ الجرائد اليوميّة، وقد كان بعد أيام قليلة من هذا الخَبَر، أحضروا نسخةً من الجرائد... وقد استلمها الأنبا بيمن. ولك أن تتصوّر مقدار اللهفة والإثارة في كلّ المجتمعين، بعد أيّام هذا عددُها قضيناها في تعتيم إعلاميّ كما يقولون، فمن يوم ٣ سبتمبر، مضى أكثر من شهرين لم نسمع فيها خبرًا صحيحًا، إلاّ فيما نَدُر، ولم نكن نعلم حقيقة ما يدور حولنا، وما يُرادُ بنا... إذ لم يتكلّم معنا مسئول، أو يوضِّح لنا أحدٌ حقيقة الأمر. وما أن استلم الأنبا بيمن الجرائد حتى (تَحَفَّظ عليها)، ثم هَدَّأَ الحاضرين، وبدأ يقرأ العناوين الكبيرة بصوتٍ عالٍ، ثمّ ينتقِل إلى الصفحات التالية... وهكذا.

وأخيرًا توزعت الجرائد في صفحات، تبادلها القراء، إلى آخر هذه الأمور.

زيارة مسئول كبير:

اتّسم ليمان وادي النطرون بسِمة خاصّة، إذ كان إذا قَدُمَ إليه أحد الضبّاط من ذوي الرتب الكبيرة، أنّهم كانوا يستقبلونه مثل الوِحدات العسكرية في الجيش بتحيّة موسيقيّة؛ فكُنّا إذا سمعنا مثل هذه، عَلِمنا بقدوم المأمور أو أحد كبار الزوار.

وفي أحد الأيّام عزَفَت الموسيقى، وسمعنا في الخارج أصواتًا ورَبكةً، فأيقنّا أنّ في الأمر شيء، وماهي إلاّ لحظات حتى فُتِحَ العنبر، ووقف بنا مسئول كبير (نائب رئيس مصلحة السجون برتبة لواء)، وقد اجتمع حوله بعض معاونيه من كبار الضبّاط، وهيئة إدارة السجن وعلى رأسهم المأمور وحشدٌ من الضباط... وقد هرعَ كثيرٌ مِنّا إلى لقائهم، وظلّ الرجُل واقفًا بالباب، وانهالت عليه أسئلة واستفسارات، اختلط بعضها بالبعض فلم يستطِع أن يتكلّم، وكان الرجل مُتَحَفِّظًا جِدًّا فطَمأَنَ الجميع بكلماتٍ قليلة، وفجأة رفع بصَرَه مقابل الباب داخل العنبر، وكان البعض منا يجلس على السرير في الدور الثالث فقال بصوت عال:

«اسمعوا يا جماعة، باختصار... صلواتكم عملت الكثير... وفاضِل شويّة... الجماعة اللي فوق دول يصلّوا لنا كمان شوية، تتصلّح قَوِي»

باستثناء مأمور الليمان، كان الضبّاط في هذا السجن أكثر هدوءًاوأكثر تفهُّمًا... كأنّ البُعد المكاني صيّرهم بمنأى عن مركز الاضطراب النفسي، فكانوا يتّسِمون بالهدوء واللطف.

وكان أحدهم وهو شابّ صغير برتبة نقيب، يُكَلَّف في وقت الفسحة بالوجود بيننا لحراستنا، وفي يوم من الأيام اقترب إليّ وتجاذبنا حديثًا وِدِّيًا وصار بيننا نوع من الأُلفة، ثم في اليوم التالي تطرّقنا إلى موضوعات كثيرة، حتى أنّه شَكَا إليَّ تجربةً يمرّ بها هو وزوجته، إذ أنّهما متزوّجان من عِدّة سنوات ولم يرزَق نسلاً،

سألني لقد سمعتُ عن البابا كيرلس ومارمينا، وتمنّيت لو أعرف أحدًا يقودني إلى هناك، فوعدته أنّه إن سمح الربُّ لنا بالخروج فأنا مستعدٌّ أتمّ الاستعداد لذلك، وقد أعطيته عنواني وأرقام التليفونات، وشكرتُ الربّ كثيرًا أنّ رائحة المسيح في قدّيسيه ستظلّ تملأ الأجواء، يَشتَمَّها الجميع.

شهادة عجيبة:

رجع أحد الآباء من التحقيق، وكان هذا الأب فلاّحًا بسيطًا تبدو ملامحه مُعَبِّرة عن بساطته، ومظهره الريفي يوحِي لمن يراه لأول وهلة أنّه أمام رجل ساذج لا معرفةَ له.

ولكنّ واقع الرجل كان مختلفًا، فهو كاهن تقيّ محب لله، تتّسم حياته بالتطبيق العملي للوصايا الإنجيليّة، مع معرفة هادئة بغير فلسفة الكلام؛ فكان والحال هكذا، يَشهَد للمسيح بالحياة أكثر من الكلام، كنموذج حيّ، وشهادة لقوّة الوصايا وصِدق المواعيد الإلهيّة.

رجع الرجل من التحقيق، وقصّ على الجميع رحلته إلى المدّعي الاشتراكي، ثم جولة التحقيق مع أحد المستشارين.. ومِن المفارقات المضحِكة أنّ المستشار بعدما أنهى مع الأب التحقيق، سأله لكي يُصَدِّق على أقواله: «تعرف تمضي يا أبونا ولا تبصم»، فبادره الأب قائلاً: «لا... أمضي يا بيه»... وهذا يرينا أنّه حتى

المستشار المحقِّق افتكر في الرجل بحسب ما رآه من المنظر الخارجي، من بساطة الأب وسذاجته.

وقد أدهشني كثيرًا ما رواه لي هذا الأب على انفراد، وأعتقد أنّه قَصَّهُ أيضًا لكثيرين مِنا قال: «تَصَوَّر أنّهم خايفين مِنّا... وإحنا غلابة...»

قلت له: «كيف؟»

قال: «أثناء التحقيق، أمر المستشار الذي كان يحقّق معي، أمَرَ كاتب التحقيق أن يُحضِر له شيئًا، فخرج الكاتب وانفرد بي المستشار، وسألني خارج التحقيق قائلاً: «قول لي يا أبونا إنتم عندكم صلاة تصلوها تمَوّت الإنسان؟» فأجاب أبونا بتلقائية قائلاً: «يا بيه إحنا ناس غلابة لا نقدر نموّت ولا نعمل شيء». فاستدرك المستشار قائلاً: «لا أقصد ذلك، ولكن يعني صلوات ممكن تضُرّ أو تؤذي» فأجاب الأب قائلاً: «لا يا سعادة البيه عُمر الصلاة ما تؤذي ولا تضرّ، ولكن إن كانت صلاة حقيقيّة فهي تنفع، بسدول القدّيسين اللي صلاتهم مقتدِرة.»

وهكذا كَمُلَ قولُ الربِّ: أعطيكم فمًا وحكمة. لقد جاوب الأب في اتضاع وبساطة وحكمة في آن واحد، وشهد للمسيح بلا افتخار باطل.

دروس روحية:

- اكتشاف الضعف والقامة الحقيقيّة.
- بداية السُكنى المشتَرَكة.. ثُمّ نموّ الحبّ.
- بعض القامات في الإيمان..

شخصيّات نادرة:

- **الأنبا بموا**

راهب بكلّ ما تُعنِي الكلمة من معاني روحيّة، رجل صلاة، وصمت، وسلام روحاني داخلي عميق، رُسِمَ على صفحة وجهه ثباتٌ وبشاشة غريبة. لم يُرَ في كلّ أيّام وجوده بالسجن منذ أول يوم إلى آخر يوم، لم يُرَ إلاّ مبتسِمًا بلا كَدَرٍ ولا أدنى تذمُّر.

لما شاعَت الأخبار بقرب خروجنا، في بداية يناير ١٩٨٢، فكّرت في أن أسال البعض لأستخلِص ماذا كانت نتائج هذه التجربة الفريدة في نفوس بعض الآباء والأخوة.

ومن ضمن الأسئلة التي سألتُها: «مِن هو الشخص الذي تأثرتَ به أثرًا روحيًّا لا تنساه؟ أو مَن تظُنّ أنّه جاز التجربة دون أن تؤثِّر فيه سلبياتها المخيفة؟»

وكان جواب مَن سألتُ، وبلا استثناء،إنّه الأنبا بموا هو الأوّل بيننا. وقد كان هذا التقرير الذي أجمعَ عليه الجميع، كلٌّ على انفراد، تقريرًا واقعيًّا حقيقيًّا.

فِعلاً، قليلاً ما تَكَلَّم الرجل واعِظًا أو مُعَلِّمًا، ولكنّه كثيرًا ما صَلّى في هدوء، بل إنّه كان يقضي مُعظَم وقتِهِ إن لم يكُن كلّه مُصَلِّيًا الصلاة الدائمة، وهذا كان منشأ الفرح والسلام القلبي.

وقد قال لي إنّ أجزاء كثيرة من القداس مُمكِن أن يُرَدِّدها الإنسان ليتعزى بها... أليست هي صلاة، بل من أقدس الصلوات.

وكان يقول إنّه إذا فَتَح أحد أسفار الكتاب المقدس. كان يشعر أنّ كاتبه يَفرَح، إذ يَحسِب أنّ كرازته وكلماته قد وصلَت، وما زالت تعمل وتُخلِّص، وتجذب نفوسًا للمسيح.

وكان يقول، إنّه إذا بدأ في قراءة إنجيل أو سفر من أسفار العهد القديم أو الجديد، لا يستطيع إلاّ أن يُكمِله، لأنّه يعتقد أنّه عيبٌ كبيرٌ أن تُقاطِع الكارز في نصف كلامه، فكان يقرأ السفر حتى نهايته؛ أو بحسب تعبيره يُنصِت حتّى آخِر حديث الكارز أو الكاتب، ويشعر أنّه يجلس إلى جواره، يسمع منه بفرح. وهذا يَجعَل الإنجيل في حياتِهِ، ليس كلامًا مكتوبًا، ولكن كرازة تَبلُغ إليه من أرواح الكارزين والقدّيسين، الذين كانوا من البدء خُدّامًا للكلمة.

وقد كان يومُ التحقيق مع أنبا بموا، ونحن في وادي النطرون.. ذهب الرجل ورجع مملوءًا من السلام، وقد أعطاه الربّ إكرامًا جزيلاً ونعمةً في عينيّ المحقِّق، لم يَحظَ بها أحد.

إذ قال المُحَقِّق مرّات، إنّه حصل على بركة ونعمة، وقدّم له إكرامًا، وقدّم له مشروبًا كتحيّة مَرّة، ثمّ أصرّ أن يقدِّم له مشروبًا آخر، ولمّا اعتذر الانبا بِموا أصرّ المستشار بإلحاح.

وقد أعفى المستشار الأنبا بموا من الإجابة على معظم الأسئلة في التحقيق، إذ كان المستشار نفسه هو الذي يردّ على السؤال ويُملِي على الكاتب الإجابة.

فصار المحقِّق كأنّه محاميه الخاصّ!!!

وقد أُشِيعَ حول الأنبا بموا شائعات كثيرة ونحن في الأيام الأولى، إذ قيل إنّ الرجل كانوا يفتحون زنزانته فلا يجدونه، ثم يفتحون فيجدونه.. وأنّ كلّما حقّقوا معه وجدوا الورق أبيضَ بلا كتابة، وهكذا قيل.. إلى آخر هذه الأقاويل...

ومَرجِع هذه الشائعات في رأيي، يَرجِع إلى أنّ الأنبا بموا يحتلّ مكانةً كبيرة في قلب الناس، لاسيّما الذين عرفوه أيّام أن كان في دير مارجرجس بالرزيقات في صعيد مصر...

وكان أيّامها أن ازدهر الدير، وصار يحضِر إليه آلافٌ من الناس يلتمسون البركة، وقيل إنّ الربّ صنَعَ على يدي الأنبا بموا مئات من آياتِ الشفاء وإخراج الشياطين.

ومازال أهل الصعيد الأعلى يذكُرُون الأنبا بموا، ويسعون إليه ويلتمِسون بركته، إلى يومِنا هذا.. (**بعدها أسّس الأنبا بموا ديرًا على اسم مارجرجس في الخطاطبة، ثمّ تنيّح بعدها بسنوات قليلة.)**

- **الشماس عبد المسيح روفائيل:**

وهذا أيضًا عَيِّنة نادرة، عجيبة حقًّا، فالرجل كرّس حياته منذ شبابه المبكّر لخدمة المسيح، وهو يلبس جلبابًا أسود ويطلق لحيته ويلبس طاقيّة سوداء على رأسه، وقد تجاوز ال٦٥ من عمره، وقد عاش مع زوجته ٧ سنوات في بداية حياتهما إلى أن أنجب الأولاد، ثم انحاز إلى فِكر التعفُّف، وانصرَف للعبادة والتفرُّغ للصوم والصلاة، فلم يعد يَعرِف زوجته منذ ذلك الحين. وهو مثال للتقوى المسيحيّة في أكمل صورتها، وقد قبضوا عليه مُتَّهمًا بأنّه يوزّع منشورات تبشيريّة. والواقع أنّ الرجل كان يكتب نبذات صغيرة لتثبيت الإيمان بالمسيح، ويردّ فيها على البِدَع القائلة بإنكار لاهوت السيّد المسيح له المجد.

ومِن أشهَى المناظر الروحيّة التي شاهدها الكثيرون في السجن، مَنظَر الشمّاس عبد المسيح قائمًا كلّ يومٍ يُصَلِّي، في الرابعة صباحًا، واقِفًا فاتِحًا ذراعيه، ومُغَطِّيًا وجهه ورأسه بفوطةٍ، لكي لا يجذِب نظره أو انتباهه إنسان أو شيء فيبعده عن صلاته، أو يشتِّت ذهنه، ويستمر في هذه الوَقفَة مُسَمِّرًا قدميه، حتى السابعة صباحًا...

وقد سألته فأجابني في بساطة وسذاجة: «ماذا تصلي؟»، فقال: «المزامير»...!!

أليسَت هي مدرسة الصلاة... التي تخرّج منها جميع القدّيسين، بل إنّ أعجَب من هذا أنّ الرجُل كان يقضِي مُعظَم وقته في القراءة، وخاصّةً الأجبية، تَراه مُمسِكًا بها طول النهار، يزيد المزامير تلاوة ويَشبع من ينابيع المياه الروحية وأنهار التعزيات. فكان مثلاً نادرًا للصلاة بلا شبع.

ومِنَ العَجَب، أنّه في يومٍ مِن الأيام، قرأنا في إحدَى الجرائد أنّ الوضع بالنسبة للمتحفَظ عليهم أوشك على التصفية، وأنّ الجميع تقريبًا غير مدانين بالنسبة للمسيحيّين، فيما عدا القمص بولس باسيلي والشماس عبد المسيح، اللذان نُسِبَ إليهما التطرُّف في الأفكار والعمل في إشعال الفتنة الطائفيّة، وقد حاول الموجودون إخفاء مثل هذا الخبر، لاسيّما أنّ أبونا بولس مريض بالسكَّر، والشماس عبد المسيح رجل متقدِّم في الأيام، ويُخشَى عليه مِن مثل هذا الخبر.

ولكن كان من بيننا من لم يَسمَع باتفاقِنا بإخفاء الخبر، فبادر دون قصدٍ سيء إلى توصيل الخبر إلى الشماس عبد المسيح، وهنا سأل الرجل عن المجلة وعبثًا حاولنا إخفاءها ولمّا لَم يُقنَع، اضطررنا إلى أن نريه إيّاها، مع عبارات تَعزِية وتقوية وطمأنينة أنّ الامر لا يعدو أن يكون كلام جرائد.

ولكن المفاجأة أنّ الرجل ما أن قرأ الخبر بعينيه، حتى فاض وجهه بسلام عجيب وطفق يضحك متهلّلاً، في بشاشةٍ وبراءة

وكأنّه مُقبِل على إفراج من السجن، فكُنّا نتعجّب من مسلكِه، ومن العجيب أيضًا أنّ الرجل خرج من السجن في الدفعات الأولى...

- **عمّ مجلّي:**

عَمّ مجلِّي -تاجر مواشي- وهو في الخمسين من عمرِهِ من الفيوم، قُبِضَ عليه ضِمن المتحفَّظ عليهم. كان قد ساعَد في شراء أرض بإحدى قُرَى الفيوم لبناء كنيسة عليها... وفي ليلة القبض عليه كان في بيت والده المُسِنّ ووالدته المتقدِّمة في أيامها أيضًا... حَكَى لي كم كان المنظر مؤلِمًا لنفسه، إذ رأى هذَيْن الشيخين يجهشان بالبكاء رغم ضعفهما ووَهن جسديهما... ظلاّ يبكيان حتى لم يعد لهما القدرة على البكاء... وهما يعلَمان علم اليقين أنّ ابنهما -وهو المشهور بالتقوى وحُبّ خدمة المسيح- لا يمكن أن يكون ارتكب حماقة أو شيء يستوجِب القبض عليه، ومعاملته معاملة المجرِمين.

قضى عمّ مجلّي الأيام الأولى في «سجن التجربة» بالمرج، ثمّ رَحَلُّوه مع ٧٠ من العلمانيين إلى سِجن أبي زعبل... هناك قضوا شهرًا من الزّمان، ثم رُحِّلوا إلى ليمان وادي النطرونفي نفس يوم ترحيلنا إليه وسَكَّنوهم في عنبر آخر في ذات السجن. ثم بعد عودتنا إلى سِجن المرج، عادوا معنا. ثمّ بعد أيّام سكنُوا معنا ذات العنبر، وظلّوا هكذا لآخر مُدّة التحفُّظ.ومع توالي الأيام، عرفتُ الرجُل عن قُرب، وعرفتُ فيه إيمانًا بسيطًا، وثقة في المسيح تفوق الوصف...

وقد عرفه جميع الآباء، الأساقفة والكهنة على السواء، إنسانًا خادمًا متّضِعًا دون أن يكلّفه أحد بالخدمة... وضع نفسه خادمًا لجميع الآباء في حدود الحياة اليومية التي كُنّا نحياها.

فهو يراقب الآباء... ينتهز فرصة لتقديم أيّ شيء مهما كان صغيرًا.

فهو إذا رأى أنّأحد الآباء مَثَلاً يشرب كوبًا من الشاي... يهبّ مُسرِعًا ليأخذها من يده كخادم، ويذهب ليغسلها ويعِيدها...

أو لاحظ أنّ أحد الآباء يحمل صفيحة ماء ليوصلِّها إلى الحمامات... لا يتركه إلاّ ويحملها عنه، بمودّة وتوسُّل، وعَبَثًا حاول الآباء أن يُثنوه عن عزمه... فهو في جميع المواقف رجل شَهم خدوم متواضع.

وقد كَشَفَ عن معدن الرجل ما لاحظته عليه في عصرِ أحد الأيّام... كُنّا يومها في الحوش المجاور للعنبر. وجدته يسير بمفرده ذِهابًا ومجيئًا بخطوات جادّة، بوجهِهِ مُطرَقًا إلى أسفل وملامح وجهه مُكمَدّة.. تقدّمت إليه وأمسكتُ بذراعِهِ، وقلتُ مداعِبًا إيّاه، «إلى أين أنت ماضٍ، هل وراك مشوار؟»

قال بنغمة جادة... «لا شيء يا أبي!!»

قلت: «ما لك؟»

قال: «لا شيء»

قلتُ وقد تحقّقت أنّ شيئًا جادًّا قد ألَمّ به: لا تكتمني

الأمر أرجوك، ماذا حدث؟ فقال بعد إلحاح مِنّي: أنّه جاء اليوم بعض الأقارب للزيارة، وأعلموه بخبرٍ مؤلم.

قلتُ: «ماذا، والدك؟»

قال: «نعم، ووالدتي أيضًا.»

«لقد مات الاثنان!!»

كم تأسّفتُ في نفسي، وهاجت مشاعري...

لقد كان الرجل يشعُر بذلك منذ زمن، كانت تأتيه الأفكار نحو والديه... منظرهما وهو مقبوض عليه لا يفارق ذهنه، وكنتُ أنصحه بالصلاة، وألاّ يَدَعْ المجرِّب يطمَع فيه بالأفكار المزعِجة. وكان الرجل يستجيب ويصلّي. فلمّا جاء هذا الخبر مَلَكني التأثُّر.

وصرتُ أعزّيه بكلام الكتب.. وأنّهما قد صارا شريكَيْن للإكليل، إذ تألّما من أجل الله. وأنّ الله ليس بظالم حتى ينسى تعب المحبّة، فهو أراحَهما من أتعاب الجسد، وضمّهما إلى أحضان القدّيسين، فقد كان آخر رصيد لهما هو اشتراكهما في الضيقة والصبر من أجل الله.

قضَينا ساعة نروح ونجيء ونحن نتكلّم ونتعزّى، ثمّ فاجأني بطلب عجيب.

قال: «أرجوك يا أبي ألا تُخبِر أحدًا بذلك، فالآباء والأخوة عندهم ما يكفيهم من الآلام، ولا أريد أن أضيف إلى آلامهم آلامًا

بظروفي الخاصّة. وأنا مؤمن أنّ الله سيسندني ويشدِّد إيماني.»

تعجّبتُ جدًّا... وعلمت حقًّا أنّه إنسان الله.

ففي مثل هذه الأوقات كم يحتاج الإنسان العادي إلى مَن يواسيه، ومَن يقف بجواره، ومَن يكون حوله.

أمّا هذا الرجل، فقد اكتفى بتعزية النعمة وحضور المسيح.

بل أنّه آثَرَ أن يتألّم وحدَه، وأبى أن يُضيف أتعابًا على أحد. إنّه حَقًّا مثلٌ فريدٌ وُجِدَ بيننا.

أحداث متفرّقة:

من الأحداث ما يَعلَق بالذهن إلى فترات طويلة، وكلّما تذكّرها الإنسان يبتسم، لِما فيها من مُضحِكات مُبكِيات في ذات الوقت. من هذه الأحداث، ما عِشناه أثناء إقامتنا في ليمان وادي النطرون... كان مأمور السجن رجلاً ساديًا يميل إلى تعذيب الآخرين ويتلذذ بذلك.

في صبيحة أحد الأيّام، أمَرَ أن يُخرِج كلّ واحد مِنّا متاعه لأنّه مُزمِعٌ أن يقوم بحملة تفتيش، وقد اعترى الكلّ دهشة عجيبة.. تُرَى ماذا استجدّ مِن أمر؟ لم يدخُل إلينا أحدٌ، لَم يَخرُج مِنّا أحد، لم يتغيّر في الأمر شيء، فلماذا إذًا هذا الكَدَر؟

انصَعنا للأمر صابرين، وأخرجنا كلّ واحدٍ متعلّقاته البسيطة من ملابس وخِلافه.

ومن سوء الحظّ، أنّ الأنبا بيمن كان لديه مُفَكِّرة صغيرة يحتفظ بها، فداخَلَهُ الخوف أن يعثروا عليها في التفتيش، إذ كان محظورًا أن تقتني ورقة ولا قلمًا إلى ذلك الحين.

فلمّا خطر ببالِهِ أن يتخلّص منها خِشية المُساءلة، أعطاها للقمص زكريا بطرس لكي يتخلّص مِنها وهذا بدورِهِ ألقاها في سلّة المهملات في العنبر.. ولكي تَكمُل فصول المهزلة، إذ بالسجين المكلَّف بإلقاء المهملات في العربة، يَلمَح هذه المفكرة، فيلتقطها لوقته ويجري بها إلى المأمور، وهُنا وَجَد المأمور ضالّته المنشودة، وفي أسرعِ من البرق كان الخبر قد سَرَى إلى مباحث أمن الدولة، ورئاسة مصلحة السجون...!!

وتوافد كبار المسؤولين إلى السجن للتحقيق في هذا الحَدَث الخطير...! ولكي تزداد الصورة إظلامًا، فقد عَثَر المأمور فيما هو يقَلِّب صفحات المفكّرة على رسم تخطيطي لدائرة تليفزيونيّة، إذ كان الأنبا بيمن في إحدى أسفاره للخارج يفكِّر أن يزوِّد قاعة المطرانيّة بملّوي بدائرة تليفزيونيّة مُغلقة، لأجل زحام المصلّين هناك، فرأى أن يضع في الجزء الخارجي من القاعة جهاز تليفزيون، لكي يتابع المُصَلّون بالخارج الصلاة، وهم يشاهدون مراسم الصلاة على الشاشة الصغيرة.

ومن المضحكات المُبكِيات أنّه قامت الدنيا في ساعتها،وكأنّ الأنبا بيمن كان يخفي في حوزته ما يمكن أن يدان عليه بأقصى العقوبات.

وبدأت التحقيقات مع الأنبا بيمن، جلسة وجلسات، مع ضبّاط من كلّ الجهات، ولم تهدَأ هذه العاصفة حتى جاءت التقارير والتحرّيات تؤكِّد وجود هذه الدائرة التليفزيونيّة المغلقة داخل المطرانية بملوي.

لقد كشف هذا الموقف العجيب كم كان البعض مثل مأمور السجن، يحاول جاهدًا أن يجد عِلّة يشتكي بها علينا، حتى ولو كانت قصاصة ورق، ولكن الشيطان الذي يحرِّكه للشر يرجع خائبًا منكسِرًا...

ولم تمض عِدّة أسابيع حتى فوجِئت بنَعْي مأمور السجن في الأهرام، تعجّبت كثيرًا لأنّ الرجل لم يكن يزيد على ٤٥ سنة من عمره...

حادث مُشابِه:

عندما عُدنا من وادي النطرون إلى سجن المرج مَرّة أخرى، وكانت بوادر الإنفراج تبدو قريبة، كُنّا نواظب على الصلاة والتضرُّع. ولما حان وقت الصوم الميلادي، أقبلنا على الصوم بشغفٍ بالغ، إذ وجدنا فيه فرصة مواتية للصلاة والسهر لا سيّما في شهر كيهك المبارك.

وفي أول ليلة من ليالي السهر الكيهكي المملوءة بالتسابيح، امتلأ جوّ العنبر بأريج بخور الصلاة غير المادّي، واشترك عددٌ ليس بقليل في صلاة التسبحة الكيهكيّة حتّى مطلع الفجر، وكان أن شَدّ هذا المنظر الروحاني أحد الآباء (أبونا يوسف أسعد)، حتّى تخيّل له أنّه لم يكن ساعتها ليعيش على الأرض، بل أنّه اختُطِفَ إلى السماء ليتمتع بتسبيح السيرافيم. عاش أبونا ليلتها بهذا الفكر المرتفِع في التأمل، وتَمَنّى لو سُجِّل هذا الحدث الفريد بأيّ كيفيّة.

فخطر بباله خاطر، اختمر في ذهنه؛ أن يحصُل على كاميرا ويسجِّل منظَر الآباء والأخوة وهم واقفون في التسبيح، بالمنظر الذي شدّه شَدًّا عجيبًا نحو السمائيات.

وقد وجدها فرصة سانحة، أنّ السيّدة زوجته كان لها ميعاد لزيارته في اليوم التالي.

وفي بساطة قلب متناهية، لأنّ الرجل مثل باقي الآباء خالِ الذهن تمامًا عن قوانين السجون أو اللوائح وما هو مُصَرَّح به وما هو ممنوع... إلى آخر هذا الكلام.

هكذا بهذه البساطة في الفكر كتب الأب إلى زوجته في قصاصة ورق صغيرة، أن تُحضِر له في الزيارة القادمة كاميرا صغيرة، وتُخفيها في أيّ شيء حتى لو في داخل رغيف خبز.

وبينما كان أبونا يوسف أسعد في حجرة المأمور، يلتقي بالسيدة زوجته وأولاده الذين حضروا لزيارته، سَلَّم أبونا الورقة

الصغيرة لزوجته، وقد تصادف وجود المُخبر «علِي خليفة» ساعتئذ، وما أن لمح الورقة حتى انقضّ عليها، وكأنّها جسم جريمة كبيرة، ففَضّ الورقة في الحال، وسلّمها للمأمور كأنّه أمر بالغ الأهميّة... كيف يطلُب الكاهن كاميرا للتصوير، ولماذا...؟!

وتضخّمَتْ القصّة في لحظات، لتَرقَى إلى مستوى الجريمة... وهاجت الدنيا وماجت.

والحقّ يُقَال أنّ العقيد محمود الجميل مأمور السجن كان رجلاً طيِّبًا غير حقود، وكان مِن عِشرته للآباء عن قُرب قد عرف مشاعرهم، وتحقَّق بكلّ تأكيد براءتهم من كلّ عمل مُشين، وقد وثق بهم إلى أبعد الحدود إذ رأى فيهم صُوَرًا للفضائل والاتضاع والطاعة والخضوع وبساطة القلب، وبالأكثر هذا الأب الطيّب أبونا يوسف، صاحب القلب الرقيق والصوت الحنون.

تألّم المأمور أيّما ألم، وأستوعَب الموقف للحال، وأوهم «علي خليفة» أنّه جادٌّ في التحقيق وباقي الإجراءات،...

وكان المأمور على علاقة طيّبة جِدًّا بالأنبا بيمن، فعرَضَ عليه الأمر متألِّمًا... فحمل الأنبا بيمن على عاتقه تسوية الأمر، وأنّه لم يَتَعَدَّ حسن النيّة وبساطة القلب.

عاد الأنبا بيمن إلى العنبر منفعلاً ومتأثِّرًا، وتحدَّث إلى الموجودين بتفاصيل الواقعة، وقد لامَ أبونا يوسف كثيرًا على تصرُّفِهِ، وفي انفعالِهِ لم يَقبَل الأنبا بيمن اعتذار أبونا يوسف.

وكان أنّ أبونا يوسف ظلّ يومَه حزينًا آسفًا وصائمًا، وقال يومها للأنبا بيمن: «إن كنتم أنتم لاتقبَلون الأعذار ولكنّ الله فاحص القلوب وعارف الخفايا، يَقدِر أن ينصفني». ولمّا تردّدت الأقوال بأنّ هذا العمل سوف يؤخِّر من خروج أبونا يوسف من السجن، قال بصوت جهوري: «صدقوني،إنّ الربّ القادر على كلّ شيء سيخرجني أوّل الكلّ.»

وقد حدث هذا بالفعل، إذ خَرَج أبونا يوسف في ١/١٢ في أوّل دُفعة خرجَت من الآباء الأساقفة والكهنة.

ومن الطريف أنّ قائمة الإفراج في يومِها تضمّنَتْ أيضًا اسم الأنبا بيمن كأوّل الأساقفة.

الخيل ورُكّاب الخيل:

من المناظر التي تركت أثرًا عميقًا في الذهن وتركت بصماتها عليه، يوم أن استمعنا ونحن وراء الأسوار إلى خَبَر تغيير الوزارة، بعد مَقتَل السادات ربّما بشهرين، وكان البعض مِنّا يتابع أخبار تشكيل الوزارة الجديدة أوّلاً بأوّل عن طريق جهاز راديو صغير، وكُنّا يومها نقف مجموعة من الآباء والإخوة نسبّح الهوس الأول «تسبحة موسى عبد الرب المسَجَّلة في سفر الخروج ١٥»، ونقول المديحة بالعربي على الهوس الأول بلحنها الحماسيّ الجميل...

وما أن سمع بعض الإخوة خبَر إقالة النبوي إسماعيل وزير الداخلية، الذي كان سببًا من أسباب أحداث الفِتنة، وسلسلة الأكاذيب والافتراءات على الكنيسة، وقَلْب الحقائق رأسًا على عقب.. أقول ما أن سمع بعضهم هذا الخبر... حتى انخرط في زُمرَة المُسبِّحين يقول «الخيل ورُكّاب الخيل طرحهما في البحر الأحمر... إلى آخره».

وصِرنا نكرِّر هذا الجزء من المديحة مرّات، متحدِّثين بمجد الله وخلاصه؛ الذي عمل لا بذراع بشر، بل بيدٍ ممدودة وذراع إلهيّة غير مغلوبة.

وكان أحد الإخوة «دكتور حلمي» وكان مُديرًا لمستشفى الخانكة العام، يوم أن ألقوا القبض عليه، والرجُل ليس له دراية كافية بالتسابيح الكيهكية.. فما كان مِنْهُ وقد حرّكَهُ توالي الأحداث من موت السادات ونهاية وزير داخليّته... وهَزَّهُ صوت التسبيح والحمد، ما كان من الرجل -وهو متقدِّم في السنّ ووقور- إلاّ أن لَفّ وسطَه بمِنشفة (فوطة) وصار يرقُص بكلّ قوتّه في وسط جماعة المسبّحين. لقد ذَكَّرنا هذا الفرح التلقائي بالخلاص، ما أحدَثَه منظر قديم مِن شَقّ البحر الأحمر وغرق فرعون ومراكبه في البحر، من تسبيح تلقائيّ في نفوس الشعب في القديم، حتّى أخذَتْ مريم النبيّة الدفّ بيدها، والنسوة حولها يُغَنّون بطبول وصنوج.

يسبِّحون الربّ بصوتٍ عظيم: تعالوا نسبِّح الربّ لأنّه بالمجدِ قد تمجّد.

الخيل ورُكّاب الخيل طرحهما في البحر الأحمر.

يوم ١٦ نوفمبر ١٩٨١

يوافق ١٦ نوفمبر من كلّ سنة (٧هاتور) عيد استشهاد القديس مارجرجس الإسكندراني، وتكريس كنيسة الشهيد مارجرجس الروماني، وتكريس كنيستنا في سبورتنج بالإسكندرية.

في عشية العيد، صلّى الآباء صلوات العشيّة بدون رفع بخور. ووجدنا صورة صغيرة لمارجرجس، وجدها أحد الآباء في إنجيله الصغير... فأمسكناها وعملنا دورة داخل العنبر، وعملنا تمجيدًا لأمير الشهداء البطل... ثم صلّينا في المساء صلاة نصف الليل. ثم جاء المُخبِر وقال: غدًا في الصباح سيذهب الأنبا بنيامين وأنا إلى التحقيق.

استبشرنا خَيرًا، وأحسسنا أنّ الشهيد العظيم مارجرجس لن يحرمنا من بركة كبيرة في يوم عيده...

استيقظنا باكرًا.. كان الآباء محبُّو التسبحة يُصَلّون تسبحة نصف الليل بصوت ملائكي خفيض، لكي لا يُقلِقوا الآباء والأخوة النائمين...

لبسنا ثيابنا... ثم استدعونا فخرجنا، وكان الجوّ الصحراوي في الصباح في ذلك اليوم بارِدًا. وجدنا عربة المساجين في انتظارنا. تَقَدّم أحد الجنود، وهو ريفيّ فَظّ، ووضع الكلابشات في معصم الأنبا بنيامين اليمين مع يَدِي اليُسرى... وضعها بخشونة، وضغطَها بالقفل، فحبست جزءًا من جِلد يدِي، وأحدثَت به كدمةً للحال، فصرختُ: «يا أخي على مهلك»... فتأسّف الرجل وفَكّها، ثم أغلقها ثانية. وهكذا أركبونا السيّارة مع بعض المساجين العاديّين الذاهبين للتحقيق.

أرضيّة العربة صاج «مضعضع»، وليس فيها مقاعد، فجلسنا على أرض السيّارة... واندفع السائق في الطريق الصحراوي نحو القاهرة.

كانت الرحلة شاقّة حَقًّا... صار جسدنا يرتطم بأرضيّة السيارة كلّما اهتزّت... وعَبَثًا حاولنا أن نتحكّم في حركتنا، فأولاً: نحن مربوطو الأيدي، ثانيًا: لسبب قوّة اندفاع السيارة، مع ضعف أجسادنا...

بعد حوالي ساعتين وصلنا إلى ميدان التحرير إلى مبنى المُجَمَّع.

نزلنا من السيارة، مُحاطين ببعض الضبّاط والمخبرين، ووقفنا أمام المصعد... لأنّ التحقيق كان يُجرَى في أحد الأدوار العليا، بواسطة مستشارين هم نوّاب المُدَّعي الاشتراكي.

لأوّل مرّة منذ ٣ سبتمبر... نخرج من بوابة السجن، ونوجَد في مكان عام، ونتقابَل مع الناس...

وفجأة ونحن نقف هكذا وإذا بإحدى بناتنا، وأعتقد أنها موظفة صغيرة في إحدى المصالح بمُجَمَّع التحرير، [٢]شابّة في العشرينات من عمرها... وكانت نازلة من السلّم تجاه المصعد الذي كُنّا واقفين أمامه.

وإذ بها تندفِع نحونا كالسهم... تصرخ ودموعها تتدفَّق من عينيها... عبثًا حاول الضباط أو المخبرين منعها...

اندفعت نحونا، تريد أن تقبّل يد الأنبا بنيامين اليُمنى، ولكنّها كانت مربوطة إلى يدي اليسرى. فقبّلَتْ يدِي اليُمنَى، وقلتُ لها مبتسِمًا: «لا تضطربي يا بنتي نحن بخير»... وقلتُ للضابط: «دَعها يا أخي، فهي تريد أن تسلِّم علينا، وهذه ليسَت جريمة...» سكت الظابط وأومأ نحوي برأسه، وتركها تمضي لحال سبيلها...

---

٢ قال أبونا لوقا لأحد أحبائه إن هذا كان أصعب موقف تعرّض له طوال فترة التحفُّظ. فلَم يحتمل دموع شابّة تُقّبِّل يدَين في سلاسل... فقد كان أسهل عليه أن يتحمّل أيّ ألم، مِن أن يرى أحدًا من شعب الكنيسة يتألّم بسببه.

عجيبٌ أبونا لوقا الذي نظر في أوائل أيامه في الزنزانة نَظرةً أربكت أحد كبّار الضباط، فقال له: ما تبُصّليش كِده. أنا أقدر أتعبِك. وكان ردّ أبونا: أنا مِش في برنامجي إنّ واحد زَيّك يتعِبني... أثّر فيه جدًّا بكاء شابّة من عامّة الشعب... أبوّة جعلَتْ هذا الجبل الشامِخ ضعيفًا!

كم تأثرنا بهذه الفتاة التي امتلأت شجاعةً غلبت الخوف، ولم يمنعها شيء من أن تُقدِّم محبةً، وأظهرَتْ بتصرّفها التلقائيّ ما امتلأت بها نفسها من حُبّ لكنيستها، وإيمان وشجاعة فاقَت كثيرًا من الرجال.

في التحقيق:

بعد أن أدخلونا إلى حجرة انتظار، فَكّوا قيودنا... ثم بعد قرابة ساعتين، دُعِيت إلى التحقيق...

دخلتُ إلى المحقِّق، وهو مستشار في الخمسينات من عمره، يجلس إلى مكتبه، وبجواره كاتب الجلسة.

سألني: «هل عندك محام؟»

قلت: «لا»... وقلت في نفسي الذي وعد أن يعطينا فمًا وحكمةً هو مُحاميَّ.

كان هناك ٥٠ سؤالاً مُحَدّدًا سُئلوا للآباء الأساقفة، من جِهة الكنيسة ونظامها وتقليدها، وعمل الأب البطريرك والأساقفة؛ أمّا الآباء الكهنة فكانت الأسئلة المُكَرّرة قليلة، ويختلِف الأمر من الواحد للآخَر بحسب ظروفه، وبحسب تقييمِهِ لدورِهِ، فيما أسموه بالفتنة الطائفيّة. فمَثَلاً نُسِبَ إلى أبينا بولس باسيلي أنّه سَجّل رَدًّا على الشيخ الشعراوي، تطاول فيه على الدين الإسلامي. ونُسِبَ إلى البعض توزيع كتابات... وهكذا.

دار محور التحقيق حول مؤتمر عُمِلَ بالكنيسة المرقسيّة في يناير سنة ١٩٨٠، عقب القنابل التي أُلقِيَت على كنيسة مارجرجس بسبورتنج، وكنيسة مارجرجس بغيط العنب، في ليلة عيد الميلاد سنة ١٩٨٠. وكنت يومها تكلّمتُ في هذا المؤتمر عن أن القنابل لا ولم تخيفنا، وتعرَّضتُ لموجات الاضطهاد التي يعانيها المسيحيّون في كلّ موقع، وأنّهذه الاضطهادات لا تجعل المسيحيّين يتركون إيمانهم، بل على العكس فهي تقوّي الإيمان، وتُزِيد المسيحي تمسُّكًا بمسيحه وبصليبه، وقلتُ: إن كان هؤلاء المتطرّفون يعلنون عن بغضهم للمسيحيّين جهارًا، فالسياسة التي تتبعها الدولة، من عدم تكافؤ الفرص للمسيحيين في الجامعات أو القضاء أو المراكز الوظيفيّة، أو حتى حقّ العبادة وبناء الكنائس، فهذه تُعَبِّر عن نفس الاتجاه.

سألني المحقق قائلاً: «لماذا ذهبت إلى الكنيسة المرقسية، وأنت كاهن كنيسة مارجرجس؟»

أجبته «أنّ الكاهن في الكنيسة يذهب إلى جميع الكنائس، والكنيسة المرقسيّة هي الكنيسة الأم.»

قال لي: «أنت متّهم بأنّك حرضتَ الناس ضدّ الحكومة.»

قلت: «أنا لم أتكلّم في الخفاء، ولم أعمل في الظلام، لأنّ ما تكلمتُ به مُسَجَّل، وأرجوك أن تستمِع إليه. فإن كان في كلامي ما يُمكِن أن أعاقَب عليه، فأنا لا أعتفي من ذلك.»

سألني: «تفتكر مين يكون ألقى القنبلة على الكنيسة؟»

قلت: «لا أعلم.»

قال: «ألا توجد بينكم وبين أحد خصومة؟»

قلت: «لا... لأنّ الكتاب يوصينا حتى بمحبة الأعداء؛ قائلاً أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم.»

قال «من هم أعداؤكم؟»

تعجّبتُ للسؤال، وقلتُ له: «يا سيّدي هذا كلام السيد المسيح له المجد، وقد قاله قبل الإسلام بسبعمائة سنة. فلا يمكن أن يكون كلامًا مُوَجّهًا ضد فئة من الناس... هي وصية محبة نحو جميع الناس؛ والمسيحيّ مطالَب أن يعيشها، وأن لا يعرف العداوة نحو أحد، حتّى الذين يُعادونه أو يضطهدونه.»

ثم سألني عن معاهدة السلام التي أبرمها الرئيس السادات مع اليهود.

قلتُ له: «أنا لست رجل سياسة.»

فقال: «أنا أريد أن أعرف مجرّد رأيك الشخصي»

قلت له: « أنا أحبّ السلام المبني على العدل، وأُبغض الحروب والقتل وأعمال العنف جميعًا.»

ولمّا لم يجِد موضوعات أخرى، قال: هل لديك أقوال أخرى، قلت: «لا.» فاختتم التحقيق وصرفني.

عُدتُ إلى الحجرة، وانتظرت الأنبا بنيامين حتى الرابعة بعد الظهر. فلمّا عاد أعادوا وضع أيدينا في القيود، ورجعنا بذات العربة إلى وادي النطرون... وفي الطريق سألت أنبا بنيامين كيف كان التحقيق؟ قال لي: لم يستكمِل بَعد؛ فالمحقِّق يتطرّق لموضوعاتٍ عديدة، وكلام كثير في مجالات متعدّدة. ومن المؤسف أنّ أنبا بنيامين تكبّد مشقّات هذه الرحلة الأليمة في اليومين التاليين، إذ دام التحقيق معه ثلاثة أيام... ولكنّ الله لن ينسى تعبَ المحبّة، وأنّه متطلِّع على كلّ شيء، يَسمَع ويكتب أمامه سفر تذكره.

زيارة جرجس من أسقفيّة الخدمات:

كان بعد موت السادات ربّما بأسبوعين، وكانت الأزمة قد تَغَيّر مسارُها بموته... فصارت اتصالات، وسمحوا لأحد الأخوة أن يزورنا لمدّة خمس دقائق: كان الأخ جرجس وهو خادم بأسقفيّة الخدَمات هو أوّل مَن رأيناه منذ ٣ سبتمبر يوم القبض علينا... ولك أن تتخيّل ساعة دخوله إلى الحوش الملحق بالعنبر: اندفع إليه الآباء والأخوة وكنّا ٤٨ شخصًا، عدا ٧٩ آخرين في عنبر آخر.

كان الأخ جرجس بصفته متواجِدًا في البطريركية، خبيرًا بأحوال المقبوض عليهم، وكان في فترة الشهرَين قد تعرّف على كثير من أقاربهم وعلى أحوالهم. ورغم زحام الناس، وزحمة المعلومات، وشوق كلّ واحد أن يَعرِف عن ذويه ولو كلمة مُطَمئِنة... رغم هذا الزحام حول الرجل، وضوضاء الأسئلة، إلاّ أنّه كان حائزًا على

نعمة عظيمة، ففي بِضع دقائق كان قد تكلّم مع الكلّ تقريبًا، وأوصل لكلّواحد رسالة طمأنينة ورسالة تعزية، بعقل راجح، وفِكر متوقِّد، ومحبّة لا يمكن التعبير عنها... ثم توالت زياراته لنا في وادي النطرون ثم المرج.

يزورنا كلّ أسبوع أو أسبوعين على الأكثر، ويحمِل الأطعِمة لجميع المسجونين، إذ سمحوا بدخول أطعمة وملابس واحتياجات كلّ واحد... كان يعمل هذا العمل بنشاط غير عادي، وشخصيّته كانت محبوبة لدى الضبّاط والمسؤولين... كان إنسانًا سَخِيًّا بشوشًا... ولم يتذمّر قَطّ من كثرة طلبات أو إلحاحات البعض. كان جرجس بالنسبة لنا كالترمومتر؛ الذي قاس لنا حرارة حبّ الكنيسة، وقلب الجميع من نحونا، فكان منظره يُشيعُ فينا عزاءً وشجاعةً...

وكُنّا نُصلِّي كثيرًا من أجله، ومن أجل كلّ الذين تعبوا من أجلنا...

الزيارات:

في أوائل ديسمبر سَمَحَ المُدّعي الاشتراكي لأقارب المتحفظ عليهم بالزيارة، بتصريحٍ يحصلون عليه من مكتبِهِ مَرّة كلّ أسبوعين... وكان الأقارب، لا سيّما الذين يسكنون في الأقاليم والصعيد، يتكبّدون مشقّة كبيرة، حتّى يتسنّى لهم زيارة أحد أحبائهم، ولكنّها على كل حال كانت تعزية لنفوس كثيرة.

لأنّهم لم يكونوا قد رأونا على مدة ثلاثة أشهر، وكانت الشائعات كثيرة، والأقاويل تتناقل عن أحوالنا وظروفنا، ومعظمها كانت من نسج الخيال...

فقد أُشِيع عن أنبا بيمن أنّه تنيّح داخل أسوار السجن، وسارع البعض من الآباء بعمل تجنيز وتراحيم في القداسات. وكانت هذه الشائعات والتكهُّنات تتكاثر في الأيام الأولى، حيث لا يعرف أحدٌ مكاننا ولا أحوالنا. لذلك كانت زيارة الأحبّاء نِعمة لنا من جهة،ومِن جهةٍ أخرى قاتلة للإشاعات ومُبطِلة للأقاويل.

زارنا كثيرٌ من الآباء الأساقفة: الأنبا إغريغوريوس والأنبا يؤانس والأنبا أثناسيوس والأنبا تيموثاوس والأنبا باخوميوس، كانوا يتأثّرون لرؤيتنا، وأغلبهم كان يغلبهم البكاء عندما يروننا، ولكنّنا كُنّا نُطَمئنهم على أحوالنا،على أنّ البعض مِنا كان يقاطِع زيارتهم، وآخرون كانوا يتكلّمون معهم بجفاءٍ، كيف يتركوننا في هذا الوضع ولا يتكلّمون من جِهتِنا بجرأة، ويُخرجوننا...

ومن البديهي أنّ الآباء في خارج السجن لم يكونوا أحسن حالاً مِمَّن بالداخل، فالضيقة كانت شاملة للجميع، ولم يكن في مقدور أحدٍ أن يفعل شيئًا. وكان الآباء يتقبّلون بصدرٍ رحِب كلّ ردود الفِعل السلبيّة هذه.

كما زارنا كثيرٌ من الآباء الكهنة، من أماكن متعدّدة، وفي أيام كثيرة.

وكان قد أُشيع أنّ الرئيس حسني مبارك سيتقابل مع الآباء الأساقفة، وأنّه سيعمَل صُلحًا شامِلاً مع الكنيسة، وسيطلِق سَراح الآباء جميعًا.

وعلى أثرِ هذا توتّرت الأعصاب، في انتظارٍ قلقٍ من الأكثرين مِنّا، إذ كانوا يَعدّون الساعات والدقائق. وجاء اليوم المعهود وتمّت المقابلة... ثم سأل أحد الآباء عن أخبار الإفراج، فأجاب الرئيس أنّه وَقّع أوّل قرار للإفراج، واستفسروا عن أسماء الذين سيُفرِجون عنهم، فقال الرئيس إنّه لا يتذكّر أسماء. وخرج الآباء الأساقفة فرحين مُتَوَقِّعِين أنّه في ذات اليوم سيصير حلّ للأزمة... ومرّت ساعات اليوم ثقيلةً جِدًّا، إلى أن جاء وقت الغروب. ثم حضَر المُخبِر إلى العنبر ونادى الأسماء، وفوجئنا أنّ قرار الإفراج لم يشمَل سِوى اسمَين من العلمانيين فقط، هُما الأستاذ عادل بسطوروس وكان قد عانى كثيرًا من المرض في مُدّة سِجنِه، والأستاذ حِكمَت وهو رجل كاثوليكي -وكيل كليّة سان مارك- وتربطنا به علاقة محبّة قديمة. كان هذا في عشيّة ٢٤/ ١٢/ ٨١ .

أُصيبَ الجميع بإحباط شديد على أثرِ ذلك، وساد الوجوم أيّامًا وأيام.

ظلّتْ الأقوال والشائعات تتردّد يومًا بعد يوم، والبعض يتوقّع أنْ لابد مِن إفراجٍ قبل عيد الميلاد... ومَرّت الأيام، وجاء يوم البرامون ولم يحدث شيء.

قداس عيد الميلاد:

كان الأنبا بيمن -نيّح الله نفسه- على صِلة طيّبة بمأمور السجن، فطلبَ إليه أن نصلّي قداس عيد الميلاد، وحدثَت مفاوضات بين رجال الإدارة، واستأذنوا الجهات العُليا، وهكذا سمحوا لنا بهذا الأمر.

وفي العصرِ حضَر الأخ جرجس يحمِل معه أواني المذبح والبخور والشورية والحَمَل والأباركة...

وصار الجميع يتهيّأون للعيد، ولحضور القداس الذي حُرِموا مِنه منذ خمسة شهور... مُدّة كبيرة، لاسيّما لخُدّام المذبح، الذين تعوّدوا الصلاة كلّ يوم، ورَفع القرابين...

تَمّ تجهيز العنبر الذي يَسكُن فيه الأخوة العلمانيّون، علّقوا ستارة في آخر العنبر، وجاءوا بمكتَب أحد الضباط لكي يكون المائدة المقدسة، ووضعوا عليه اللوح المقدس وفرشوه وبدأوا بعمل التسبحة... ثم رفع بخور باكر العيد، ثم لبس الآباء الأساقفة ملابسهم الكهنوتية، وبدأت ألحان الفرَح تنساب وتتسلل إلى هذه النفوس المنكسرة... كَم سالت دموع بلا تكلُّف... فيها الفرح بميلاد المسيح مخلص العالم. ملك السلام ورئيس السلام.. فرح عظيم بشَّرَتْ به الملائكة في يوم ميلاده، وقيل إنّه يكون هذا الفرح نَصِيبًا للجميع.

ثم مشاعر مختلطة مِن كلّ ما تَمُرّ به الكنيسة، مع واقع وجودنا في داخل الأسوار... ثم كيف يتنازَل المسيح ويوجد بجسده ودمه في هذا المكان؟ ألَمْ يولد في مذود؟ ومن ناحية أخرى هناك مَن يَذكُر شعبه وكنيسته وأولاده الروحيّين، وهناك من يذكُر بيته وأولاده وأقاربه وأحباءه سيّما في مثل هذه الليلة... أمور كثيرة وخواطر يصعب التعبير عنها.

كان القداس بالحقّ وجودًا ملموسًا للمسيح في وسطنا، يومها عِشنا السماويّات عينَها، وقَلّ أن يعيش الإنسان مثل هذا اليوم؛ فهي فُرصة نادرة لم تحدث في الكنيسة ربّما منذ أجيال كثيرة، بل وربّما لم تحدث على الإطلاق أن يُعَيِّد مثل هذا العدد من الأساقفة والكهنة خلف الأسوار، وأن يصلّوا قداس العيد داخل الأبواب المغلقة.

على أيّة حال تعزّت نفوس كثيرة... كانت الصلوات مرفوعة من قلوب منكسرة لا يُرذِلها الله.

وكانت الألحان تُنعِش النفوس، كأنّها رياح الحياة تهبّ على العائشين في ظلال الموت.

أو كقول إشعياء عن ميلاد المخلِّص: الجالسون في الظلمة وظلال الموت أشرق عليهم نور (إش٩: ٢).

† من الحوادث التي عَلَقَتْ بالذهن، وكانت ذات دالّة كبيرة، ما حَدَثَ ليلة عيد الميلاد سنة ١٩٨٢، مِن جهة الإخوة المسجونين بسجن المرج، غير المتحفّظ عليهم. كان لمّا أُذيع خبر أنّنا مُصَرَّح لنا أن نحتفل بالقدّاس الإلهيّ ليلة عيد الميلاد، أن طلب الأنبا بيمن من مأمور السجن «محمود الجميل»، أن يسمَح للمسجونين من المسيحيّين أن يحضِروا معنا، فأمر الرجل بذلك. فمَا أن سمِع المسجونون هذا الخبر، حتّى سَرَت فيهم حركة قويّة من الفرح غير المتوقَّع، فنهضوا من الصباح يستعدّون بالاستحمام وغسلثيابهم، وصاروا بلهفةٍ ينتظرون الوقت. فلمّا جاءت الساعة السادسة، أخرجوهم من العنبر، وحضروا إلى القاعة التي سيُصَلّى فيها. كَم كانت دموعهم التي ذرفوها، واستعدادهم للتوبة، وطلب الاعتراف، والتقرُّب من الأسرار الإلهيّة شيء لا يمكن وصفه بالحقيقة.. وهنا كنتُ أنظرهم وأتأمل، هل هؤلاء حَقًّا مُدانين بأحكام؟ هل بعضهم مُرتكِب جرائم يعاقِب عليها القانون؟ بالطبع بعضهم مظلومون، وبعضهم مُدانون.. لكِنْ هنا جمَعَهم روحُ التوبة والحنين إلى الصلاة والتناول من الأسرار. لقد صارَت لهم هذه المناسَبة، كأنّها ميلاد جديد، بميلاد المسيح.

كان منظرهم وتواضعهم يملأ النفس عزاءً.

أخذ الآباء اعترافاتهم، وظلّوا واقفين أثناء القداس ما يزيد عن أربع ساعات، رافضين الجلوس حتّى أثناء القراءات.. خشوع ودموع وفرح لا يُنطَق به.

بعض الآباء اعتذر عن اللبس والاشتراك في الصلاة، واكتفى بحضور القداس والتناول. أحسسنا يومها بالنِّعَم الوفيرة التي كُنّا نتمتّع بها دون أن ندرك قدرها... فلمّا حُرِمنا منها إلى زمان، علِمنا صدق المَثَل الذي يقول: إنّ الصحّة تاج على رؤوس الأصحّاء، لا يعرف قيمته إلاّ المرضى...

انتهت صلوات القدّاس الإلهي لعيد الميلاد المجيد بعد منتصف الليل، وتناول جميع الحاضرين بلا استثناء.. يا للنعمة المذّخرة لنا في التناول من الأسرار!!

شيء لا يُعَبَّر عنه... حبيبي لي و أنا له!!

بعد غيبةٍ طويلة يكون الشوق حارًّا، والعِناق الروحيّ والاتحاد بالمسيح كقول عروس النشيد: أمسكته ولم أُرخِهِ!!

كم شكرنا الله على هذه النعمة، التي انسكبت بغِنى منحدِرة من السماء، في يوم حلول ابن الله بالجسد بيننا... ورأينا مجده.

قال لي أحد الآباء بعد نهاية خدمة هذا العيد: لم أشعر بهذه الرهبة والحلاوة في حياتي كلّها، تمنّيتُ لو انتقلتُ إلى المسيح في هذه اللحظة. علمتُ أنّ الربّ صالح وطيّب... ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب.

قدّاسات وصلوات:

احتفظ الأنبا بيشوي بأواني المذبح والشورية والبخور واللوح المقدس وكُرسِيّ الكأس واللفائف والأباركة... وأوصى جرجس أن يُحضِر الحَمَل أيّام السبوت، وكان الأنبا بيشوي يحفظ القربان عنده، وفي صباح الأحد قبل أن يفتحوا العنبر يستيقظ الجميع باكرًا ويصلّون التسبحة والقداس في فجر الأحد.

وقد رَسَم الآباء الأساقفة في أحد القدّاسات بعضًا من الأخوة العلمانيّين أغنسطس ومرتّلين.

طبعًا لم يكن بالعنبر مكتب كما حدث في ليلة عيد الميلاد، ولا منضدة من أيّ نوع... فكان أنّ الأنبا بيشوي ربط بعضًا من أقفاص الفاكهة إلى بعض، فصار مذبَحًا جريدًا جديدًا، وكانوا إذا انتهوا من صلوات القدّاس أنّه كان يضعه جانبًا ويضع عليه ملابسه الكهنوتية.

وجاء صوم يونان... فكُنّا نصوم كلّ النهار، ثم ندخُل إلى العنبر قبل الغروب، ونطلُب إلى الشاويش صبحي أن يُغلِق علينا باب العنبر. وكان الرجل يتساءل: لماذا نُغلِق عليكم الباب، لِسّه بَدري؟ فكُنّا نقول له عندنا صلاة في هذه الأيّام الثلاثة.

وكان الآباء يُصَلُّون القدّاس، وروائح الصوم الكبير بألحانه المُعزّية كأنّها آتية من وراء الدهور...

وهكذا أيضًا في يوم الخميس فصح يونان صلّينا...

ثم جاء الإفراج للأنبا بيشوي فحمَلَ معه المذبح الجريد، ولم نُصَلِّ قداسات أخرى في السجن، لأنّ أحدَ الآباء كان عليه قانون ألاّ يصلِّي، وسمح له البابا بالتناول، فخشِيَ الأنبا بيشوي أن يصير جدلٌ حول هذا الأمر، لذلك رأى من الصالح أن يحمل معه أدوات المذبح وهو خارج من السجن... وهكذا صار.

كانت جُملة القدّاسات التي صلّيناها في السجن اثني عشر قُدّاسًا.

حول البابا كيرلس:

جلست في تلك الليلة إلى جوار الأنبا بموا، نتحدّث في الأمور الروحية، وخلاص النفس، والصلاة الدائمة، والتمتُّع بكلمة الحياة.

ثم انضمّ إلينا بعض الآباء الأساقفة، منهم الأنبا بيمن، وبعض الآباء الكهنة، ومنهم أبونا بيشوي يسّى؛ وهو أب طيّب متواضع، كان حديث العهد بالكهنوت، وكان رقيق المشاعر مثل طفل في بساطة. ثمّ تطرّق الحديث بين هؤلاء المجتمعين إلى سِير القدّيسين، ودون ترتيب تركّزت حول سيرة طيب الذكر البابا المتنيح الأنبا كيرلس السادس.

وكان كلّ واحد من الذين عرفوه أو عايشوه أو اتّصلوا به،

يحكي طَرَفًا من الحديث يتعزّى به الحاضرون...

وكانوا يتكلّمون عن المهابة والجلال الذي أحاط رجل الصلاة والاتصال بالله.

فقاطعهم أنبا بيمن وقال: «أنا كنت أخاف الرجل خوفًا كبيرًا، وبالكاد كنتُ أقترب لأسلّم عليه أو أكلّمه، ولكنّنى فوجئتُ بمنظر عام ١٩٦٧ وأنا في الكنيسة المرقسية، وأحد الآباء الكهنة واقفًا في الهيكل إلى جوار البابا بدالّة عظيمة، يتكلّم معه، ويداعب شعر لحية البابا.»

فقال الحاضرون: هذا مستحيل، ومَن يكون هذا؟ فأشار الأنبا بيمن ناحيتي وقال: «هذا هو الكاهن.»

ضحكتُ وقلت له: صدّقني أنا لا أذكُر... ربما يكون هذا، أنا لا أنكر الدالة العظيمة التي كانت لي عند البابا، دون أن يكون لي أيّ دور من ناحيتي، **فأنا لم أتتلمذ عليه ولم أتكلّم إليه إلاّ قبل رسامتي بأيّام... وهو أصرّ أن يرسمني بنفسه في دير مارمينا، ومن يومِها كان يحنو عليّ، ويعامِلني بلطفٍ وحنانٍ بالغ، بل وكان يتباسط معي في الحديث كمثل أبٍ مُسِنّ رُزِق طفلاً. ثم ابتدأت أذكر بعض المواقف التي رأيتها من أعمال الله معه، وقوّة الصلاة، وإبراء المرضى، والمعرفة الفائقة للأمور، ولِما في داخل الناس.**

وتذكّرتُ ساعتها أنّني كنت أزور البابا في القاهرة، وكان يحبّ أنّني لا أذهب إلى مكان ولا إلى منزل والدي قبل أن أزوره هو أولاً، وإذا عرف أنّني عملتُ غيرَ ذلك، كان يعاتبني بلطف وكأنّه زعلان.

دخلتُ مَرّة إليه في قلايته في الأزبكية... وكنتُ أشعُر بقوّة ونعمة عظيمة في الروح حين كنت أنظر إليه أو أقَبِّل يديه أو أستمع إلى صوته. وقفتُ أمامه يسألني عن أحوالي وعن الخدمة والكنيسة، وكان يقول إزَيّإخواتك؟ وكنت أسأله مين إخواتي؟ كان يقول أبونا بيشوي وأبونا تادرس... كنت أقول دول آبائي يا سيدنا. فكان يفرح ويقول يابني الاتضاع حلو... يرفع أصحابه.

وبينما أنا واقف وإذا ضابط بالجيش يدخل إلى حجرته، ويسجُد عند الباب، ويأتي إلى البابا راكعًا ودموعه على خدّيه... صاح البابا: «كفاية يا ابني مالك يا حبيبي...» فقال الرجُل بصوتِه الباكي: «أشكرك يا سيّدنا أشكرك...» قال البابا: «الشكر لله، يا بني تعالَ لما أصلي لك..» ووضع الصليب على رأسه وصلّى له وصرفه. بعدما خرج الرجل قال لي البابا: أصلُه يا ابني كان في ضيقة ومظلوم، فأرسلنا له مارمينا فأنقذه...

أكملتُ وقتي وحديثي مع البابا، وأخذتُ بركته، فصلّي لي وقبّلتُ يديه، وخرجت في قمّة الفرح والسعادة التي لا يُنطَق بها.

فلمّا خرجت وجدتُ الضابط في الصالون... سلّمتُ عليه،

وقلتُ له: «من أين أنت؟» قال: «أنا من إسنا»...

قلت: «وما هي حكايتك؟» قال: «أنا مسئول عن مخازن الأسلحة والذخيرة، ثم حدثَت سرقة في المخازن منذ شهر، فوَجّهوا إليّ الاتهام، وبدأوا يحاكمونني، وكنتُ في ضيقة عظيمة الله يعرف مداها، وكنت أشتهي الموت... وكنت أسمع عن البابا كيرلس أنّه حبيب مارمينا، وأنّه له عنده دالّة عظيمة... فصرخت في صلاتي وقلت: يا بابا كيرلس يا حبيب المسيح أنقذني...»

قلت له: «كأنّك لم ترَ البابا من قبل» قال: «هذه أول مرّة أراه اليوم.» قلتُ: «ثم ماذا حدث؟» قال: «انفرجَت الأزمة ثاني يوم... قبضوا على اللصوص وفي حوزتهم الأسلحة، وأُثبِتَت براءتي بطريقة مُعجزيّة، فجئتُ أشكره وأقصّ له القصّة كلّها. ولكنّه فاجأني بأنّه عارف... أنا مذهول.»

قلتُ له: «إنّه قال لي: راجل كان في ضيقة، وبعتنا له مارمينا فأنقذه»

قال الرجل وهو يجهش بالبكاء: «عجيبٌ هو الله في قدّيسيه.»

وبمثل هذه القصص الحقيقيّة والفائقة للعقل، كُنّا نمجِّد الله في تلك الليلة، وكان الجميع يشتركون في التعزية، بِما لهم من خبرات، ومن آيات نظروها ولمسوها في حياة البابا كيرلس السادس...

كان الوقت قد قارب نصف الليل، فقُمنا وصلّينا، وذهبنا كلّ واحد إلى سريره...

ولكن أبونا بيشوي يسّى تعلّق بي، وقال في بساطة تشبه بساطة الأطفال: «يا أبي أرجوك خلّي البابا كيرلس يجيء لك في الحلم، ويطمّنك، ويقول لك على خروجنا من السجن»، ابتسمتُ وقلت: «يا أبونا هو أنا حُشْتُه؟ لو عاوز يجيء أهلًا وسهلًا، يشرّف السجن ويباركه ولو في الحلم.»

فعاد يلحّ عليَّ كأنه بيدي شيء...

قلتُ له: «يا أبونا صدّقني أنا إنسان خاطئ، لا أستحقّ أن أحلم به، ولا حتى أن أتحدّث عنه... دي حكايات صنعها هو مع الناس، وأنا مُجَرَّد شاهد مُتَفَرِّج، ولكنّني لستُ طرفًا فيها»

قال: «لكن معلهش.. أنا واثق يا أبونا،إعمل معروف.»

كم تحيّرتُ في نفسي جِدًّا، وقلتُ له: «تصبح على خير يا أبي، وصلِّ عني...»

صعدت إلى السرير، لأنّ السرير كان ثلاثة أدوار، وكنت أنام في المستوى الأعلى.. رشمتُ ذاتي بعلامة الصليب وسلّمت نفسي للنوم...

ومِن المُدهِش حَقًّا أنّني رأيتُ البابا كيرلس في تلك الليلة، رأيتُ فى رؤيا عجيبة كأنّي أصلّي القداس في كنيستي مارجرجس

بسبورتنج مع البابا كيرلس، وكنتُ في قِمّة التعزية والفرح.. والقداس سماوي.

وانتهى القُدّاس، وخلعتُ ملابس الخدمة، ولبستُ الفاروجية والعِمّة، وخرجتُ من الهيكل وجلستُ ألبس حذائي. وبينما أنا كذلك تذكّرتُ الآباء في السجن، وضيقة نفوسِهِم، فخلعتُ الحذاء وأسرعتُ داخلاً إلى الهيكل وقلت لسيدنا: حَسَنًا إنّني تذكرتُ، الآباء يا سيّدي تَعبانين خالص، ونفوسهم مُرّة، وطلبوا مِنّي أن أسألك، قال لي: «يا بني طمّئنهم؛ أنا تكلّمت مع رئيس الوزراء أمس من أجلهم، وكلّهم هيطلعوا، ولن يصاب أحدٌ منهم بضرر.»

فوجئت في الساعة السادسة صباحًا، بالذي يهزّني ليوقظني مِن النوم... فتحتُ عينيّ وقلت: «مين؟» وإذا أبونا بيشوي يَسّى متعلّق بالسرير، ويقول «جالك يا أبونا.»

قلتُ له: «لماذا أيقظتني من النوم؟»

قال مُكَرِّرًا... «جاءك... جاءك..؟».

قلتُ له: «أمام الله إن تكلّمتَ أزعل مِنّك...» قال لي: «وعد، لا أتكلم...» قلتُ له: «نعم جاءني، وقال لي كذا وكذا...» فقبّلني ونزل متهلّلاً...

في ذلك اليوم، جاء أوّل إفراج لأربعة من الآباء؛ هم أنبا بيمن وأنبا بموا وأبونا بيشوي يسّى وأبونا يوسف أسعد.

يومها أثناء النهار، قال لي الأنبا بموا أنّه شعر بحضور البابا في وسطنا،وقال لي: «ساعة ماكنتَ تتكلّم، كان صوته يرِنّ في أذني، وكأنّه حاضر معنا تمامًا...»

فقلت له ماحدث مِن أبونا بيشوي يسّى، وقلتُ له مارأيتُ فمَجّد الله.

وقال أنّه رأى هو الآخَر صموئيل النبي في تلك الليلة.

وبعد ظُهر هذا اليوم، طلبوا هؤلاء الأربعة آباء، وخرجوا كباكورة لكَسر الأسْر والتحفُّظ...

مصطفى أمين:

عكف الصحفي الكبير مصطفى أمين، وعلى مدى شهرين، يكتُب عن الحرّية في عموده الشهير (فِكرة). وكُنّا ونحن في السجن نقرأه، ونَعجَب للمفاهيم والمعاني الحقيقيّة، ونَعجَب بفِكرهِ المستنير ورأيه البعيد عن نغمة التعصُّب التي كانت سائدة في تلك الأيام.

كان مِن ضِمن المُتَحَفَّظ عليهم الصحفي سمير تادرس، ونشأَت بيننا وبينه محبّة في مدة التحفُّظ. ثم إذ أُطلِق سراحُهُ، جاء يزورنا في السجن، فقلتُ له أنا أُقَدِّر هذه الروح الطيّبة والوطنيّة الصادقة التي يكتب بها مصطفى أمين، وأنا أفهم مابين السطور، أرجو إن قابلته تبلّغ محبّتي واحترامي لمثل هذه الشخصيّة الوطنيّة

النادرة، وتبلغه إنّنا نصلّي لأجله، ولأجل كلّ الذين يرجون خير البلاد ويحبّون السلام. وكان أن أبلَغَه سمير هذه الرسالة، فعاد يكتب ويقول: «إنّ القارئ المصري بحاسّته الوطنيّة يقرأ مابين السطور، وفي أيّام الرقابة على الصحافة يقرأ مايشطبه الرّقيب... إنّ الحرّيّة تجري في دماء المصريين». وعندما تمّ الإفراج عَنّا، كتَب في اليوم التالي: «سعدتُ عندما علمتُ بخبر الإفراج بالأمس عن بعض القيادات الإسلاميّة والمسيحيّة، وفرحتُ إذ قرأتُ بين أسماء المُفرَج عنهم الأنبا ويصا والقس إبراهيم والقس لوقا سيداروس»، وعلمتُ أنّ الرجل بهذه الكلمات يبعث لي من بعيد تحيّة وتهنئة...

مع إنّي لم أرَ الرجل مِن قَبل، ولم تربطنا صِلة سِوى صِلة الوطن الواحد، وحُبّ الحرّيّة وبُغضة التعصّب والعنف.

يرحمة الله كان مِثالاً للوطنيّة الصادقة فقد تَرَبّى في بيت خاله سعد زغلول، وتَعَلَّم منذ نعومة أظفاره حُبّ المصريين جميعًا، وبلا تفرقة.

صُن صُن:

من يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٨١، كان كلّ المتحفَّظ عليهم من المسيحيّين يأتون بهم إلى سجن المرج، سواء الأساقفة أو الكهنة أو العلمانيّين؛ واستودعوا جميعهم في مبنى «سِجن التجربة»، وهذا كان مَبنَى منفصِل بأسوار، وهو مجموعة من الزنازين. ولمّا تمّ تسكينهم معًا ضاقت بهم الزنازين، وصار أربعة أو خمسة يسكنون زنزانة واحدةرغم ضيقها الشديد. فكان والحال هكذا، يستحيل فيها استمرار الحياة، لسبب الحرّ وعدم التهوية، ومساحة الزنزانة ١٥٠ × ١٨٠ سم.. لذلك قرّروا نقل العلمانيّين إلى سجن أبي زعبل، بعد أن أقاموا معنا ١٠ أيّام أو يزيد.

كانوا لمّا رَحَّلوا الإخوة العلمانيين، وكان عددهم ٧٩ إلى سِجن أبي زعبل، أنّهم تألّموا جِدًّا إذ صاروا بعيدين عن الآباء الأساقفة والكهنة، إذ شعروا في وجودهم معنا -رغم ضيق المكان واستحالة العيشة في الزنازين القاتلة- شعروا أنّهم في أمان وتعزية. وعلى كلّ حال لم تكن المعيشة في زنازين سجن ابي زعبل أحسن حالاً من عنبر التجربة في سجن المرج.

فقد سكَنوا كلّ ٥ أو ٦ أشخاص في زنزانة واحدة، وهي متّسعة نوعًا وبها شِبّاك، فلم تكُن مشكلة التهوية أو الاتساع تؤذِي أحدًا، ولكنّ المشكِلة المؤذية والمقزّزة للنفس كانت أنّ الزنزانة ليس بها دورة مياه... وكانوا يَخرجونهم لقضاء الحاجّة مرّة

واحدة صباحًا ولمدة ١٠ دقائق تمامًا لكلّ حجرة... شيء مؤسف ومهين، ولكنّهم بتوالي الأيّام تعوّدوا على هذه الحياة راضين.

فقاسوا معاناةً شديدة من جِهة هذا الأمرالصعب، وكان فيهم كبار السنّ الذين جاوزوا الثمانين، ومِنهم مَن كان في مقتبَل العُمر لم يبلُغ العشرين. وقد احتملوا من أجل المسيح هذه المذلّة، والمعامَلَة غير الآدميّة، بصبرٍ ودموعٍ، وقد واظبوا على الصلوات والميطانيات ودراسة الإنجيل، بحسب ما عاشوا معنا في سجن المرج.

كان بينهم طبيب مستنير(الدكتور نبيل عطا الله) وهو طبيب جَرّاح من سوهاجوهو رجل مستنير وشخص فاضل، وبعض الإخوة كبار السنّ، أخذوا بين الباقين موقِع القيادة في الحديث مع المسؤولين، أو التفاهم في أيّ شيء يخصّ المجموعة... وكانوا يقودونهم في الصلاة.

ومن الأمور المُعَزِّية، أنّهم استمرّوا في الصلوات التي كانوا يصلّونها معنا، واستمرّوا أيضًا في عمل الميطانيات الأربعمائة كلّ صباح وهم يصرخون كيرياليصون، كيرياليصون...

وكانت التعليمات في سجن أبي زعبل مُخَفَّفة، فقد عرفوا بمقتل السادات في ذات اليوم، وكانت الأخبار تصلهم بسهولة، وكان الضبّاط يتكلّمون معهم بأكثر وضوح.

ومن الطريف أنّهم ثاني يوم بعد مقتل السادات، أنّ الإخوة كمِثل كلّ يومٍ قاموا باكرًا، وبدأوا بصلوات باكر والثالثة بالمزامير، ثم تلوا ذلك بعمل الميطانيات صارخين كيرياليصون...

وبعد دقائق فوجئ الجميع بصوت الضابط يصرخ بشدة في داخل العنبر يأمرهم بالسكوت...

«إيه الحكاية... صُن صُن تاني... كفاياكم... إنتم ناويين على مين تاني، ما هو مات وخلاص»

صَمَت الإخوة، ثم تقدّم الدكتور إلى الضابط وكلّمه بكلّ وداعة وأدب قائلاً: «يا بيه، دي (كلمة كيرياليصون تعني يا رب ارحم) وهي ليسَت موجَّهة ضد أحد... دي طلب مراحم الله التي نحتاجها جميعًا»

ولكن الذي رسَخ في ذهن الضابط، أنّ قوّة فعّالة في هذه الصرخات بكيرياليصون التي لم يفهمها...

وعبثًا حاول الأخ الدكتور أن يُفهِمه عكس ذلك، فخضعوا لأمرِهِ وكانوا يعملون الميطانيات ويقولون كيرياليصون، كلّ واحد يقولها سرًا.

أبونا تادرس:

إنّ المحبّة القلبيّة التي تربطنا، أبونا تادرس وأنا، والتي عِشناها مِن أيّام أبينا بيشوي كامل شيءٌ فريدٌ حَقًّا.

وكنتُ فيما أسأل بعض الآباء والإخوة، عمّا أثّر في حياتهم، أو لفت نظرهم، كانوا يذكرون هذه العلاقة التي رأوها، والبعض كان يستغرِب هذا، كيف يكون كاهنان زميلان في كنيسة واحدة تربطهم هذه العلاقة العميقة والحبّ الفائق، وكأنّها ظاهِرة نادرة الوجود. وكنتُ حينما أسمع ذلك، أحزن في نفسي إلى الحال الذي وصلنا إليه.. لأنّ المحبّة هي أساس البنيان في الكنيسة، وأنّ المفروض يكون هذا هو الوضع الطبيعي في الروح، وخِلاف ذلك يكون وضعًا غير صِحيّ وغير روحيّ.ذَكَّرَني هذا الكلام بيوم كُنّا في حضرة البابا شنودة، وكنتُ أضحك مع أبونا تادرس بأُلفتنا العاديّة، فنظر البابا وقال: «منظرٌ جميلٌ هو الذي أراه الآن من هذه المحبّة بينكما». فقلتُ للبابا: «إنّ الفضل يرجع إلى أبينا بيشوي، نيح الله نفسه، هو الذي زرع فينا هذه المحبّة...» فدعا لنا البابا، وتأسّفت إذ صار هذا المنظر نادرًا، وإنّ ما يراه البابا كلّ يوم بين الزملاء من الكهنة شيئًا غير ذلك.

لقد عِشنا في أيام خدمتنا الأولى في كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس بسبورتنج، أقرَب مِن الإخوة الأشقّاء،فلم يكُن مَن يَعرِف له أشياءَ خاصّةً.. كان أيّ واحد يلبس أيّ تونية

يجدها.. لم يكُن للمال اعتبارٌ في حياتنا سِوى أنّه للخِدمة، فمَن يحتاج شيئًا يأخذ بدون حسابات بيننا وبين بعض، بل كُنّا نشعُر أنّنا منفتِحون بالروح على بعض، فما أطلبه من أيّ مِن الآباء أجده وأعتبره مِلكي الخاصّ، وحتّى عند سَفَر أبونا تادرس ترك لي سيارته؛ استخدمتها، وحينما بِعتها بعد ذلك بسنين استخدمتُ ثمنَها في شراء سيارة أخرى... هذه مجرد أمثلة تافهة بسيطة، تُعَبِّر عن عمق أبعَد وحُبّ أكبر تخطّى كلّ الحواجز والاعتبارات المادّية، وإن اختلفَت شخصيّاتنا وإمكانيّاتنا؛ بحسب نعمة الله الذي قسم لكلّ واحد نصيبًا من الإيمان.. فكانت كأنّها أيّام السماء على الأرض...

كانت هذه الصورة داخل الأسوار شيئًا مُعَزِيًا للنفس، ودون أن ندري لاحظَها الكثيرون ومجدوا الله؛ الذي يعمل فينا أن نريد وأن نعمل لأجل مسرّته.

ومن النوادر، أنّني كنتُ أحيانًا استبقي بعض المأكولات وبعض الفواكه، في صندوق صغير بجوار سريري، قد أحتاج شيئًا منها أثناء النهار...

وكثيرًا ما كنتُ أرجِع من الحوش الخارجي فأجد هذا الصندوق فارغًا... وإذ أستفسِر أعرِف أنّ أبونا تادرس قد تصدّق بها، ووزّعها على المساجين... وقد كان منظرهم بالحقّ يثير الشفَقة ويدعو إلى الإحسان.

فكنتُ أذهب إلى أبونا تادرس، وإذ وجدته في الحوش أقول: «أين الفاكهة التي كانت في الصندوق؟»

فيضحك ببساطته المعهودة ويقول: «راحت!!»

فكنت أقول: «يا أخي تَصَدَّق مِن مالِك الخاصّ، ولا تتصدّق بحاجاتي... أنا حُرّ إذا أردتُ أن أتصدّق بها...»

فيقول ضاحِكًا: «المرّة الجايّة...»

فكان الآباء والإخوة يمتلئون ضحكًا. وعبثًا حاولت أن اخبِّئ شيئًا... ففي كلّ مرّة بعد أن يوزِّع مالَه، يبحث عن حاجاتي ويُفَرِّقها ولا يُبقيها.

وكان أبونا تادرس بعد أن سمحوا لنا بالكُتُب والورق والأقلام، كمَن وَجَد حياته، وضالّته المفقودة... فكان يقضي أغلب ساعات النهار كاتِبًا كعادته.

ولم يعُد للسجن ضررٌ عليه، بل بالعكس صار فرصةً أكثر للعمل الذي يحبّه، دون أن يقطع عليه أحد خلوته مع الآباء وأقوال الآباء.

روح المَرَح:

من إنعامات الله عليَّ، والتي لن أنساها أنّه كان قد غمرَني في أثناء مُدّة السجن، بروح مَرَحٍ وفرح.. وكنت قد ألقيتُ رجائي على الله، وحسبته أنّه شَرَف عظيم أن ينال الإنسان شيئًا من الآلام من أجل الاسم المبارك. فكنتُ دائمًا في بشاشة، وكنتُ لا أطيق أن أرى أحد أحبّائي المسجونين معي في ضيق، فكان الربّ يعطيني ما أُعَزِّيه به، وأُفَرِّجُ عنه بكلمة حياة وتشجيع، وأحيانًا بكلام ملاطفة ومرح.

ولكن يبدو أنّ هذا الأمر كان مرصُودًا ومُرَاقَبًا، لاسيّما هذا السلوك المَرِح؛ ويبدو أنّه لم يكن مَرضِيًّا عنه من المسئولين.

وقد علمتُ هذا حينما جاءني أحد أحبّائي لزيارتي، وهو رجل مستشار ومسئول وحكيم، وعلى علاقة طيبة جدًا بكبار المسئولين.. جلس معي وهو يحبّني جِدًّا.

وقال: «كيف الحال؟»

قلتُ له: شاكِرًا الله.. «الحال على ما يُرَام»، قال لي: «أرى أنّك تعيش بروحٍ عالية، وأنّك كثير المرح وكثير الضحك...»

قلتُ: «نعم، أشكر الله.. هو كذلك». قال لي: «أولادك في الخارج تَعبانين ومحتاجين وجودك معهم...»

قلت: «ربّنا يحفظهم، ويطمئنّا عليهم.»

قال: «أرجو أن تسمع لي... فأنت تعرف مقدار حبّي لك...»

قلت: «هذا أنا أثِق فيه كلّ الثقة.»

قال: «الحقيقة أنّني علمتُ من مصادِر أثقُ بها، أنّه طالما أنتَ بهذه الروح... لن تخرج من السجن؛ لأنّهم يودّون أن يُخفِضوا من هذه الروح للجميع، وأنت رافع الروح المعنويّة للكلّ... وأنا أَعِدَك -بنعمة الله- أنّ خروجَك يكون قريبًا جدًّا إذا أظهرتَ هذا للمسئولين.»

قلت: «وكيف؟»

قال: «اكتب خطابًا إلى زوجتك وأولادك، وأَظهِر فيه مشاعر الآلم من الحبس، ومشاعر الضيق والتعب.»

قلتُ: «ثم ماذا؟»

قال: «سيستلم المأمور هذا الخطاب مفتوحًا، ويوصِّله إلى السيّدة زوجتك عن طريق المباحث، وهُم إذ يقرأون هذا الكلام، سوف يأتي الله بالفرج سريعًا.»

قلتُ له، وقد أخذني العَجَب: «مَن قال لك أنّني أريد أن أخرج؟أو أنا متلهِّف على الخروج، وأريد أن أتخلص هكذا من هذا الوضع مهما كانت الوسيلة؟ ثم أنّني -كما تعرفني- لا أحبّ الكذب، فكيف أكذب وأقول أنّني مُكَدَّر وتَعبان ومتضايق، إلى آخر هذه الأمور؟»

قلتُ له: «يا صديقي صدّقني أمام الله، إنّ سروري يَكمُل حينما أرى كلّ واحد من الآباء والإخوة المسجونين مبتسِمًا وضاحكًا ومتعزيًا.وأنا أودّ أنّ آخر مسجون يخرج وهو مبتسم، ويكون سروري أعظم إن كنتُ أنا آخِر واحد...»

قال لي: «يا أبي أنا لا أستطيع أكلّمك أكثر من هذا، وقلبي معك، والذي سَنَدَكَ فيما مضى يُكمِل عمله معك... ولكنّي بأمانتي وددتُ لو أنقِل لكَ وِجهة نظر المسئولين...»

شكرتُ له محبّته، وتعجّبت من هذه السياسات الغريبة التي لا أفهمها.

والأمر العجيب أنّ بعد خروجي من السجن، علمتُ أنّ أحد الأحباء في الإسكندرية، المتنيح الأستاذ ميشيل كيرلس الجواهرجي، قال له أحد كِبار المسئولين: أنّ نادية زوجتي ممكن تكتب طلبًا، أنّها والأولاد صاروا غاية فيالتعب، وأنّ الأطفال مَرِضوا نفسيًّا وأن... وأن...

ولكن نادية رفضَت هذا الكلام، وقالت: إنّ أبونا لما يطلع من السجن، سوف يَستاء من هذا الأمر، ولَم تفعله؛ بل قالت: الأولاد بخير، محروسون بقوّة الله، وأبونا سيخرج عندما يأذن الله بذلك.

الأستاذ الدكتور ميلاد حنّا

كان ينتمي في بداية الخمسينيّات، وهو شابّ في مقتبل العمر، إلى مجموعة الشباب التي في كنيسة الشهيد مارجرجس بجزيرة بدران، وكان مرتبِطًا بالكنيسة، غيورًا مملوءًا جرأةً وحماسًا، وبحسب الجيل الذي عاش فيه كان مُتَفَتِّحًا فِكريًا كثير القراءة في الكتب التي كانت ترِد إلى مصر في ذلك الحين. فتأثّر كثيرًا بالفِكر الاشتراكي، وانخرط في العمل السياسي إلى جانب تَرَقِّيه في عمله الأساسي كمعيد في كليّة الهندسة، إلى أن صار أستاذًا من جهابذة الهندسة في مصر. وهو رجل نشيط مشهود له من جميع الأوساط، وكشخصيّة فذّة مُفَكِّرة كان على صِلَة بمُعظم قادة الفكر في البلد، ومعظم رجال الدولة، مِن وزراء ومستشارين ومهندسين ومحامين... وله مؤلّفات سياسيّة ووطنيّة، تحمِل فكرَهُ وتُظهِر شخصيّته.

وكان بتوالي السنين قد تَغَرَّب كثيرًا عن الكنيسة، لم يَعُد لصيقًا بها أو قريبًا منها، فعَلى مُستوى العبادة اكتفى ببعض المناسبات، وعلى مستوى آباء الكنيسة صار ليس على صِلَة قريبة بأحدٍ من القيادات؛ سواء البابا البطريرك أو الأساقفة أو الكهنة... وقد أُشِيعَ حَولَ الرجل كلامٌ كثير، أنّه شيوعيّ، وأنّه مُلحِد، وأنّه لا يؤمن بشيء، ولا يحترم شيئًا.

كان مِن أول الذين قُبِض عليهم في ٣ سبتمبر، ولكن لم يُلحِقوه بسجن أبي زعبل مع باقي السياسين، مِثل حسنين هيكل، وعبد العظيم أبو العطا، وباقي السياسيّين الذين قَبَضوا عليهم، بل جعلوه هو وسمير تادرس الصحفي، مع الآباء الكهنة، وباقي المسيحيّين في سجن المرج.

وكان يقول وهو في زِنزانته -لزميله سمير- يا سمير لقد قسّموا مصر؛ لأنّهم حتّى في السجن فرّقونا، ليس من جِهة الهويّة السياسيّة، بل من جِهة العقيدة الدينيّة.

وهكذا بعد طول غياب، وبدون مقدِّمات، وجد الدكتور ميلاد حنّا نفسه عائشًا مسجونًا مع هذا العدد من الأساقفة والكهنة، يحيا بينهم ٢٤ ساعة في اليوم، ولمدّة يعلمها الله.

كان بعض الآباء على دِراية بهذا التاريخ، مِثل الأنبا بيمن وأبونا بولس باسيلي، الذي كان يتحدّث من خلال ثقب الباب الذي لزنزانته إلى الدكتور ميلاد.وهذا في الأيّام الأولى من السجن، حين كان كلّ شيء غامضًا تمامًا. ومِن الحديث بينهم، بدأ الكثير من الآباء والأخوة يتعرّفون على ميلاد حنّا، وحين تكلّم الرجل ظهر أنّه وطنيٌّ ثوريٌّ، قويُّ الشخصيّة جزيل المعرفة.

وكان أبونا يوسف أسعد يُصلِّي في أحيانٍ كثيرة قِطَعًا من القداس الإلهي، بصوته الملائكيّ المُعَزِّي... فكان الدكتور ميلاد يبكي بدموعٍ، وهو يستمِع. لقد هبّت الريح الدافئة، فأذابت قليلًا

من الثلج تراكَمَ مع أيّام الاغتراب، ولكنّ الشمس في حرارتها لا تعمل حسابًا لمثل هذه البرودة، فهي مُنقشِعة إن أرادت وإن لم تُرِدْ... ولا خيار.

كان لي مع الرجل أوقات كثيرة قضيناها معًا؛ تكلّمنا في كلّ شيء، وبالأكثر من جهة الحياة في المسيح، وكان الرجل مُحِبًّا للمسيح فعلاً بالقلب، بل بكلّ القلب.

وكانت قد حدثَتْ مشادّة كلاميّة في الأيام الأولى، بينه وبين أحد الآباء الأساقفة، وكانت النفوس في ضيقة شديدة وقتها، وقد استثمر عدوّ الخير ذلك لحسابه، حتى كثُرَ الكلام بل الاحتداد، بل قِيلَتْ بعض الألفاظ التي لا تليق.

يومها حذَّر الأب الأسقف الجميع، من التعامُل مع الدكتور ميلاد، لأنّه رجل شيوعي؛ فاحتدّ الدكتور ميلاد في الحديث مع الأب الأسقف، ولكِنْ مع الأيّام زالت حِدّة هذا الخِلاف.

وقد وجدتُ في الدكتور ميلاد -مع العِشرة وكثرة الأيام- وجدتُ فيه رجلاً مسيحيًّا غيورًا متفهِّمًا..

وعندما عاشَر الآباء وخالَطَهم، في تلك الحياة التي عِشناها مشترَكةً في كلّ شيء، صار له دراية بما يجري داخل الكنيسة، ولاسيّما في قيادتها.

ولكن قد أفادته هذه الخبرة بالأكثر، من جِهة رجوعه إلى التلذُّذ بالصلاة، والتمتُّع بالإنجيل، والتشوُّق إلى حياة القدّيسين

وسيرتهم العطِرة، لا سيّما المعاصرين منهم مثل البابا كيرلس السادس، نيّح الله نفسه.

وبعد مَقتَل السادات، رَحّلوا الدكتور ميلاد حنا وسمير تادرس إلى سِجن أبي زعبل، وألحقوه بزملائه السياسيّين، وهناك قضى وقتًا طيّبًا بين زملائه، لا سيّما أنّهم كانوا ينعَمون -لو صَحّ القول- بحالٍ أفضل من جهة أمور المعيشة؛ مِن أكلٍ يأتيهم من منازلهم، وراحة من جهة المكان الأنظف، وحتّى الجرائد ووسائل الإعلام كانت مُتاحة لهم، على عكس ما كُنّا نعيش فيه، مِن تَعمِيَة كاملة، مُحاطين بأكاذيب وإشاعات.

وبعد أيّام أفرجوا عنه ضِمن السياسيّين، وذهَب يومها لمقابلة الرئيس حسني مبارك، ثم بعد سنةٍ أو سنتين صار عُضوًا بمجلس الشعب، ثمّ رئيسًا للجنة الإسكان في مجلس الشعب؛ وكان ضِمن أعضاءهذه اللجنة خمسة من الوزراء. فلمّا تقابلنا كُنّا نضحك على الأيّام، وكيف تنقلب الدوائر.. ولكنّي كنت أقول له: في الحقيقة لابد لنّا أن نُدرِك أنّ هذه طبيعة العالم الذي نعيش فيه.. أعلى وأسفل، صُبح وليل، شباب وشيخوخة.. وقد يَحصُل للإنسان النقيضان في زمن قليل... فهو عالَم متغيِّر، خالٍ مِن الحقّ..!

أمّا ارتباطنا في المسيح -الذي هو الحقّ ذاته- الذي له وحده عدم الموت وعدم التغيير، فهذا يجعلنا في مأمَن مِن نكبات

العالم وتقلُّبِهِ الرديء.لأنّ المسيح ليس عنده تغيير ولا شبهظِلّ دوران.وحين نرتبط بالمسيح، فالمجد الذي يهبه المسيح في ذاتِه لأولاده هو مجدٌ أبديّ.. انظر كيف رَفَعَ القدّيسين ومجَّدَهم، إلى الأبد وإلى أبد الأبد؟

فكان يوافقني، ولم يكُن هذا الأمر يُغَيِّر مِن الرجُل، أو يجعله يفتخِر أو يهتزّ، بل كان مُلتصِقًا بفكر الله الذي في يدِهِ نفس كلّ حيّ.

ذكريات متنوِّعة

١. في الأسبوع الأول كُنّا في حالةالتعتيم الكامل، وقد انقطعَت عنّا كلّ الأخبار، من جِهة الكنيسة والأهل، وكانت الأيام تمرّ ثقيلة ولا تغيير.

وفي صباح يومٍ، كان «محرّم» بك، لواء رئيس مصلحة السجون، و«عبدالإله» بك، ضابط كبير بالمباحث العامّة، ومأمور السجن، والضبّاط... كانوا يفتقِدون الأوضاع في السجن...

وعندما اقترَبوا من الزنزانة ١٥ التي كنتُ مسجونًا فيها، سألتُ بصوتٍ عالٍ-والباب مغلق- ما هو هذا الوضع العجيب؟هل يوجد قانون في البلد ولّا لأ؟ وكيف يُحبَس الإنسان، من غير تحقيق ولا محاكمة ولا قضاء؟!

فالتفتَ «عبد الإله» بك نحو باب زنزانتي، وقال: «اسكُتْ متتكلّمش...»

قلتُ: «لا سأتكلم، ما دمتُ أقولُ الحقّ.» قال: «أنا بقول لك ما تتكلّمش.» قلت: «لا، بل سأتكلّم، أنا مسجون نعم، ولكن لي حرّيّة أن أتكلّم.»

اغتاظ الرجل، وقال للسجّان: «افتح باب الزنزانة.»

فتح الرجل باب الزنزانة... فقال لي: «عبدالإله» بك أنا قلت لك ماتتكلّمش.

قلتُ له: «لا، بل سأتكلّم... أنا بأسأل، هل يوجد قانون في البلد ولّا لأ؟!»

قال: «إذا تكلمت هاتعِبَك...»

قلتُ له: «لا تقدر... لأنّني منذ دخلت إلى الزنزانة، وضعتُ في قلبي أنّ مِثلك لا يستطيع أن يتعِبني.»

نظر إليّ الرجل بحقدٍ شديد، وكأنّ سُمًّا قاتلاً ملأ نفسه... فنظرتُ إليه...

اقترب منه «محرم» بك، رئيس مصلحة السجون، وقال: «يا أبونا دي ظروف وتعدّي، إن شاء الله كلّه يُبقَى كويّس، وفيه قانون وكلّ حاجة، وكلّ شيء هيبقى تمام، وعلينا أن نصبر، وأنتم ناس تعلّمونا الصبر.»

كان كثيرٌ من الآباء يتابعون وهُم خلف الأبواب هذا الحوار، وكثير منهم تَرَجّاني أن أصمت، آباء وأخوة، خوفًا عليَّ مِمّا قد يحدث لي.

قال الرجل: «أنت لم يمضِ عليك يومان، وعَمّال تتكلّم.»

قلتُ: «لا، نحن هنا منذ قرابة الأسبوع، ولكن الفرق أنّني في داخل الزنزانة وحاسِس بالوقت، أمّا أنت خارجها فتفكِّر بطريقة أخرى.»

وهنا أمسَكَ «محرم» بِك بالرجل، وأبعده عن باب الزنزانة، وكانت عيناي مازالتا مركّزتَيْن نحوه، فجاءت نظرَتي على وجهِ المأمور.

فلمّا ابتعد «عبد الإله» بِك، جاءني المأمور وقال: «لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ أنا أخوك الأصغر...»

فقلتُ له: «لستُ ناظرًا إليك، بل إلى غيرك...»

وانتهى الأمر إلى هنا، وأمروا السجّان فأغلق باب الزنزانة.

وفي صباح اليوم التالي، وأنا خارج من زنزانتي، وجدتُ الضابط مجدي يجلس بجوار عبد الإله بِك، وهو يقيس له ضغط الدم، والجهاز في يده.

فقلت لهما: «صباح الخير»... وقلتُ لعبد الإله بك «سلامتك»، فرَدّ عليَّ بخشونة شديدة: «أنا كويس ليس بي شيء.»

رجعتُ إليه... وقلتُ له: «اسمع... نحن لا نشمَت بأحد، ولا نتمنّى لأحدكم سوءًا... بل نصلِّي إلى الله بكلّ القلب، من أجل جميع الناس، حتّى مَن يُسيء إلينا.» وليس من أجل شيء أقول لك سلامتك، ولكنّني أقولها بقلب خالص، متمنِّيًا لكَ أن تتمتّع بصِحّة جيّدة... فلم أَقُلها لك مِن خوفٍ ولا مجاملة مزيّفة...

نظر إليَّ الرجل وقال «أنا آسف... الله يسلِّمك، وأشكرك على هذا.»

٢. كان من ضِمن المتحفَّظ عليهم، وشاركونا في السَكَن بعدما رجِعنا من وادي النطرون أحد الإخوة البروتستانت اسمه الأخ فيليب؛ وهو خادم إنجيلي، وكان يشارك الآباء والإخوة في درس الكتاب والتأمُّل، وكان كثيرًا ما يقضِي وقتًا مع بعض العلمانيين يتكلّم معهم.

وكان الأنبا بيشوي يعامِل الأخ فيليب بلطفٍ، وأحيانًا يشاركه بعض الترانيم، أو بعض التأمُّل في الإنجيل.. وجدتُه يومًا واقفًا في الحوش مع بعض الإخوة، ويُكرِّر بعض الأفكار البروتستانتيه، مِن جِهة أنّنا نؤمن فقط بالإنجيل، ونرجِع دائمًا للمكتوب، وهو يقول هذا مُعترِضًا على ما يمارسه الأُرثوذكس من طقوس العبادة في الصوم والصلاة.

وكان الإخوة بسطاء غير مدركين خطورة هذا الكلام.

وقفتُ معهم، فسلّم عليّ الأخ فيليب، وكَفّ عن الكلام. ولو أنّنا داخل السجن كُنّا في غِنى عن الجدل أو الخلافات، ولكنّني وجدتُ نفسي مُرغَمًا أن أوضِّح الأمر، لاسيّما أنّ الإخوة العلمانيّين كانوا يسمعونه بغير فحصٍ.

فقلتُ: «اسمع يا أخي.. نحن كنيستنا وإيماننا إنجيليّ مئة بالمئة، وهي مؤسَّسة وقائمة على كلّ كلمة في الكتاب، و لكن غاب عنك شيءٌ غاية في الأهميّة، وهو ما تؤمن به الكنيسة؛ وهو التقليد.»

بدأتُ أوضِّح للأخوة أهميّة التقليد، الذي هو التعليم الشفاهي والسلوك المسيحي، الذي عاشته الكنيسة من يوم صعود الرب، وحلول الروح القدس.. إذ كان المؤمنون يمارسون الحياة المسيحيّة والعبادة والمعموديّات وكسر الخبز الذي هو الإفخارستيا وباقي الأسرار، قبل أن تُدَوَّن الأسفار، فمعروفٌ أن أوّل أسفار العهد الجديد الذي هو إنجيل مارمرقس كُتب حوالي سنة ٦٠ م.

أيأنّ المسيحيّين عاشوا الحياة المسيحية بالتسليم الشفاهي، والتعليم بدون كتب، فالتقليد سبَق كتابة العهد الجديد، والقديس يوحنا قال لستُ أريد أن أكتب إليك بحبرٍ وقَلَم، ولكن أرجو أن أراك فنتكلّم فَمًا لفم.

وقلتُ حتى أنّإخوتنا البروتستانت، يمارسون أمورًا كثيرة وهي غير مكتوبة في الإنجيل، بينما ينادون قائلين «خلّينا في الإنجيل».. فهُم مَثَلاً يعيِّدون بميلاد السيد المسيح في تاريخ محدد (الكريسماس) في كلّ سنة، رغم أنّه غير مكتوب في الإنجيل.. ويبنون الكنائس بشكلٍ معيّن، وهذا غير مكتوب في الإنجيل.. ويجتمعون يوم الأحد ويمارسون العبادة بحسب قواعد، في الترنيم أو الوعظ إلخ... بترتيب هو في الواقع من وضع قادتهم الأوّلين، وهُم يتبعونه، وقد سلّموه لبعضهم جيلاً بعد جيل.

فإن كان الأمر هكذا... فبالأولى ما تسلّمناه نحن من الرسل الأطهار، والآباء الرسوليين، وآباء الكنيسة من جيل إلى جيل. فليس كلّ ما يحياه المسيحيّون مُسَجَّل بالحَرف في الإنجيل... كرشمِ الصليب مثلاً.

هنا احتضنني الأخ فيليب وقال: «أنا بحبّك يا أبونا المتعصِّب...»

قلت له: «أنا غير متعصِّب، وأعرف كنيستي وأحياها بفرحٍ، وأرفُض أن ينتقدهاأحدٌ على غير أساس، وعلى غير حقّ.»

بعد أيام رَحَلّوا الأخ فيليب إلى مكانٍآخر، وصار مع مجموعة أُخرى في حُكم المعتقَلين... ثم أُفرجِ عنه وذهب إلى السودان... ثمّ بعد سنوات، جئتُ إلى لوس أنجِلوس سنة ١٩٨٩م، وبعد

سنتين أو يزيد سمعتُ أنّ الأخ فيليب جاء إلى لوس أنجِلوس، وأنّهم جعلوه شيخًا في كنيسة البروتستانت في منطقة مجاوِرة للكنيسة التي أخدم فيها.

ومرّة وأنا أُصَلّي صلاة جنّاز على أحدِ الراقدين، وجدته ضِمن المُعَزّين. سلّمت عليه بمحبّة، وتذكّرنا الأيّام التي عِشناها، وشكرنا الله على صنيعه معنا.

٣. القداس الوحيد الذي لبستُ فيه الملابس الكهنوتيّة وصلّيت:

آثَرتُ منذ أن سمحَت العناية الإلهيّة أن نُصَلّي قُدّاسًا في السجن... آثَرتُ أن أصلّي كواحدٍ من الشعب، وأكتفي بالتناول من الأسرار، لاسيّما أنّ الآباء كثيرون؛ ٨ أساقفة و٢٤ قسيسًا... فلماذا الزحام والذبيحة واحدة؟ وكم كنتُ سعيدًا بهذه النعمة.

سألني الأنبا بيشوي، بعد أن صلّينا بعض القدّاسات: «لماذا لم تلبس...؟» وقد سألني بدالّة محبة، لِما تربطنا مع بعضنا من علاقة قديمة قويّة، إذ كُنّا قبل حياة التكريس كألصَق من الأخوة الجسديّين. قلتُ له السبب... فلم يقتنع به.

ولما صلّينا بعد ذلك قُدّاسًا قال لي: «هَلُمّ البس.» قلتُ له: «ليس عندي تونية.» قال: «أُحضرُ لك واحدة.»

قلت: «أرجوك يا سيّدي اعفِني.»

فسكت الرجل.

وهكذا صار في المرّتين التاليتين.

ثم جاء لي في يوم من الأيام، إذ كانت المُدّة تطول، ولم يُفرَج عن أحدٍ مِنا مدّة تزيد على الأربعين يومًا، جاءني يقول: «شوف.. إن أنتَ لم تُصَلِّ، وتسمع الكلام، فلن نخرُج من هنا.»

قلتُ له: «يا سيّدي جميع الآباء يُصَلّون، والقداس واحد والذبيحة واحدة... اترُك عنك هذا الأمر»... ولكنّه في هذه المرة ازداد تمسُّكًا بكلمته، وقال: «لن أتركك هذه المرّة، بل لابد أن تصلِّي، وبالأمر.»

قلتُ: «يا سيّدي، أرجوك من أجل الله... اتركني.»

قال «صدّقني ستصلّي... وستصلّي قدّاسًا لوحدك...»

حاولتُ جاهدًا أن أُثنِيه عن عزمِهِ، بكلّ وسائل الإقناع أنّ ذلك لن يكون. لأنّه ضِدّ قوانين الكنيسة ونظامها...

أنا قسيس صغير، وسط آباء أساقفة وكهنة كبار.

كيف يجوز هذا الأمر؟ وكيف يكون، ونحن كلّنا يجمعنا عنبر واحد؟

قال: «اعتبِرنا غير موجودين...» فقلت: «ولكن هذا ينافي الحقيقة، بل أنتم آبائي، وكلّكم حاضرون...»

وجدتُ فيه تَمَسُّكًا غريبًا، وإصرارًا على رأيه، وقال: أنا قلت لك وخلاص، ولابد أن تسمَع الكلام.

وفعلاً في اليوم التالي في الصباح الباكر، قام وحَضّر القربان والأباركة، وكلّ ما يلزم للقداس...

واضطَرّني أن أعمل ما يقول.

وصلّيت القدّاس، وأنا في غاية الإحراج والبؤس الداخلي، وكنت أتوسّل إلى الله أن ينظُر إلى هذا الضعف والحقارة، التي أنا أجوزها...

وتناوَل الآباء جميعًا، وكنتُ مُرًّا في نفسي، ولمّا انتهينا من القداس... قلتُ له: «هل عجبك هذا؟...» قال: «أيوه عجبني.»

وبعدها بأيّام، جاء قرار الإفراج، الذي شمل نيافته مع بعض الآباء.

فرجوته أن يحمِل معه المذبح والأواني، وكلّ شيء.. وقلتُ له كفانا ما أخذناه. فرضي أن يحمل الكلّ معه.[٣]

---

٣ قام أبونا لوقا بصلاة القداس كلّه، وقد قال لأحد أحبائه إنّ الأنبا بيشوي أصرّ أن يُصلِّي أبونا لوقا القدّاس من أوّله لآخره مُنفرِدًا. حتّى كلمة «إشليل» و«ايريني باسي» يقولها في وجود آباء أساقفة.ومن أجل الطاعة نفّذ الأمر! وفي الحقيقة: إنّ ما قام به يحتاج إلى قامة عالية جدًّا في اتضاع القلب.

يوم الإفراج

بعد أن خرجَت الدُّفعة التي فيها الأنبا بيشوي، طالَت المدّة التي بقينا فيها في السجن، بدون أيّ بادرة من أمل؛ حتّى قِيل أنّ باقي المتحفَّظ عليهم تحوّلوا إلى معتَقَلين سياسيِّين. وقد كانت هذه الأيّام تمرّ ثقيلة على النفس، أسابيع تتلوها أسابيع...

تأزّمَت نفوس كثيرة، وظنّ البعض أنّه لا خلاص، وكانت أيّام الضيق هذه لا تخلُو مِن تعزيات في الصلاة والقراءة في الإنجيل، وكُلّما كان يضعُف أحدهم كان الربُّ يعطِي روحَ قوّةٍ لآخرين حتى ما يسندوه.

وما كانت حالات الأتعاب هذه لتدوم في أحدٍ، فهو اليوم مكتئب ولكنّك تجده غدًا فرِحًا مُقبِلاً على الحياة، وكانت يدُ الربِّ سندًا للجميع.

كانت أُسَر المتحفّظ عليهم الذين يسكنون القاهرة أو ضواحيها أو الإسكندرية، يأتون للزيارة كلّ أسبوع تقريبًا، أو كلّ أسبوعين على الأكثر... وكانت الزيارات رغم كونها إرهاقًا عليهم، لكنهم وجدوا فيها تعزية ليسَت بقليلة، وكان أحد أحبّائي بالإسكندرية قد تولّى توصيل أولادي على مدى هذه الشهور إلى القاهرة أسبوعِيًّا، رغم كثرة مشاغله، ولكنّه وَضَع على نفسه إلزامًا، وكان يَفعَل ذلك بسرورٍ غامِر... كان يحضِر إليهم في

ظُهر يوم السبت، ويقطَع المسافة إلى القاهرة بسيّارته الفولكس الصغيرة في أربعٍ أو خمسِساعات، ويبيتون ليلتهم في القاهرة، وفي الصباح كان يُحضِرهم إلى السجن للزيارة؛ التي لم تكُن تمتدّ أكثر من ١٥- ٢٠ دقيقة، ثم يرافقهم في العودة إلى الإسكندرية...كم كان الأمر صَعبًا عليهم، وعلِمتُ لمّا خرجنا أنّ كثيرًا من الأحبّاء مِن شعبِنا صاموا عنا هذه الشهور كلّها... مَع الصلوات المستديمة، وبعض الآباء كان يصوم إلى الغروب ثلاثة مرّات أسبوعيًا، وبعضهم كان يصلّي قدّاسات إلى وقتٍ متأخِّر... كان قلبهم ملتهِبًا بحبٍّ عجيب، وكانت صلواتٌ مرفوعة ودموع وتضرّعات.. وقد سمع الربّ واستجاب.

وفي ذلك اليوم المعهود، كان السبت ٢٧/ ٣/ ١٩٨٢، وكان أولادي يستعدّون للذهاب إلى القاهرة، منتظرين وصول الأخ فكري ليوصِّلهم كعادته؛ وكانت إحدى بناتي وهي خادمة مُحِبّة للمسيح في منزلي في الإسكندرية وقتئذ... رنّ جرس التليفون... ورَدَّت زوجتي -كان المتكلِّم هو الأستاذ عادل بسطوروس يبشِّر بخَبَر الإفراج عنّي يومها- صارَ هرجٌ من الأولاد مع الأخت الخادمة؛ صاروا يقفزون في صالة المنزل، وزوجتي بالكاد تسمع التليفون وتصرخ في الأولاد أن يسكتوا، ولكن هيهات... أنهَتْ المكالمة وقالت لهم: «اسكتوا أنا لا أصدّق حتى أرى بعينيّ... كمّ من مرّة قالوا أنّه أُفرِجَ عنهم.. كلّ يوم أخبار وكلّ يوم أكاذيب... اسكتوا.»

سكت الأولاد ولكن على مَضَض، لا يريدون أن يُطفِئوا الفَرَح الذي اشتعل في قلوبهم. وما هي إلاّ دقائق ورنّ جرس التليفون مرّة أخرى. كان المتحدِّث في هذه المرّة هو الوزير ألبرت برسوم سلامة. تكلّم مع زوجتي، هنّأها وأكّدّ لها صِحّة الخَبَر... لكنّها لم تكُن تريد أن تصدِّق من المفاجأة... انتظَروا على أحرّ مِن الجَمْر هذه السيّارة الصغيرة التي ستقلهم... مضَتْ الدقائق عليهم بطيئةً كالدهر... أخيرًا جاء وحشروا أنفسهم حَشرًا في السيّارة، إذ رافقتهم الأخت لوريس الخادمة، والسيّدة حماتي التي كانت ستزورني لأوّل مرة؛ فلمّا عَلِمَتْ بخبر الإفراج أصرَّتْ أن تذهب إلى القاهرة، رغم محاولات إبقائها في الإسكندرية.

كان الأمر في السجن في ذلك اليوم يبدو طبيعيًّا.. كلّ شيء يسير روتينيًّا، لا اختلاف في شيء. يومها كنتُ في الساعة الثالثة بعد الظهر في الحوش المُلحَق بالعنبر، كعادتنا... ناداني أبونا بيشوي فخري (من بورسعيد) بلهجة حادّة، فلم أُعِره انتباهًا.. ثمّ كرّر النداء مُقبِلاً إليَّ، وأنا خالي الذهن تمامًا... ثم أمسكني وقبّلني، وقال: «رُوح البس علشان تروّح...»

قلتُ له: «ماذا تقول؟»

وأنا منذهِل... فلا توجَد بوادر ولا مُقَدِّمات...

قلت: «مين قال لك...؟»

قال: «(علي) نادَى الأسماء».

اندفعتُ إلى العنبر أستطلِع الخبَر... وجدتُ المُخبر (علي)، قال «ياللا يا أبونا مبروك.» ثمّ احتضنني وقبّلني، ثمّ فُوجِئت بأبينا زكريّا بطرس يحملني، كأنّي عصفور بين يديه، ويجري داخل العنبر بخطوات سريعة، ويصيح مُهَلِّلاً... لا أستطيع أن أعبِّر عن فرح الذين أحاطوني بمحبة، رغم أنّه لم يَشملهم يومها قرار الإفراج... كمّ تأثّرت من هذه المحبّة المسيحيّة العجيبة، كان كلّ واحد يَفرَح، تفرَح له سائر الأعضاء، وإن كان أحد يتألّم تتألّم معه سائر الأعضاء.

وأدركنا يومها سرّ المسيح والكنيسة، ليس بالوعظ والكلام، بل بالحياة العمليّة والواقع المسيحي الملموس.

لبسنا ملابسنا التي لم نلبسها منذ سبعة أشهر، وذهبنا أبونا زكريا بطرس وأنا إلى مكتب المأمور، أستأذنا لاستعمال التليفون، فقال نائب المأمور: «تفضَّل...». شيء غير معتادين عليه، إنّها أوّل مرّة نمسك سماعة التليفون. تكلّم أبونا زكريا بطرس مع زوجته، طارَت من الفرح وقالت له: يا أبونا هل أنت خرجتَ؟ فأجابها: لا، بل أحسن من خروجي... أبونا لوقا خرج... كادت دموعي تسيل من فرط التأثر -ما رأيت مثل هذه المشاعر- طلب منها أن تتّصل بالإسكندرية لكي تُبلِغ أولادي... ولم نعلم أنّ الخبر كان قد وصلهم قبلنا.

خرجنا من باب العنبر... فوجئنا بمنظر عجيب، فمِن عادة المسجونين العاديّين أنّهم يحتفلون بمَن يُفرَج عنهم منهم، ويزفّونه

من باب العنبر إلى باب السجن الخارجي، بالطبول والصاجات والأغاني.. إنّه تقليد عندهم.. فوجئنا بهذه الفِرقة من المساجين، يحتشدون أمام العنبر، يزفّون أنبا ويصا.. لقد كان رجلاً حنونًا عليهم، كثيرًا ما أغدق عليهم، وكثيرًا ما أمضى أوقاتًا كثيرةً مع بعضهم، يكلّمهم في محبّة وينصحهم في أبوّة... فكم تأثّروا به.

فلمّا رآهم أنبا ويصا... احتضنَهَم وشكرهم، ورجاهم ألاّ يطبِّلوا أو يرقصوا، وقال لهم إنّه يشكر مشاعرهم، وتمنّى لهم بالدُّعاء أن يخرجوا جميعهم سالمين.

تجمّعنا في مكتب المأمور... ثم جاءت عربة ميكروباص يقودها أحد المخبرين، وصَحَبَنا أحد الضبّاط من السجن إلى مبنى المباحث العامة.

وجدنا هناك الأنبا أثناسيوس في انتظارنا... دخلنا مكتب مفتش المباحث. تكلّم مع الآباء، كلّ واحد بعض كلمات قليلة، وقال إنّه وقت عصيب مَرّت به البلاد كلّها، وأنّ الأنبا أثناسيوس سيعرّفكم بأكثر تفصيل عن كلّ الأمور.

هنّأني وقال إنّ السيد الوزير يبلّغك سلامًا وتهنئةً، فشكرته، وقال: «أنا عارف شعبكم وكنيستكم، وأنا أعلم أنّك رجل حكيم.»لم أجِب بكلمة... ثم انصرفنا وركبنا ميكروباص آخر، كان هذه المرّة يقوده أحد الشمامسة؛ إنّه مِلكٌ للبطريركية.

اندفعت السيّارة في شوارع القاهرة... كان الكابوس قد انقشَع، والفرح والبشر على كلّ وجه، ولكِنْ كان قلبي هناك، حيث باقي الآباء والإخوة، وكانت كلّ مشاعري: متى يُنعِم عليهم المسيح، ويخرجون من ذلك المكان..؟!

أنزلوا بعض الآباء (من الصعيد) بجوار محطة مصر، ثم ذهبوا بِنا إلى شُبرا حيث منزل والدي.وقَف الميكروباص.. وفي ذات اللحظة، بترتيب عجيب، وقفَت العربة الفولكس... كانوا قد وصلوا تَوًّا من الإسكندرية، وكانت الخِطّة أنّهم يُنَزِّلون الأولاد في البيت، ثم يذهبونليبحثوا عَنّا أين نحن؟ لم أكد أُصَدِّق عيني،الأولاد طوّقوني، اندفعوا من العربة وهي بباب واحد يتزاحمون... ويصرخون مفيش «علي» ولا الزيارات ولا... ولا...

صعدنا إلى المنزل. كانت هناك والدتي وإخوتي، لم يكونوا يعلمون شيئًا. كانت المفاجأة لهم شديدة؛ ومِن شِدّة الفرح كان صراخٌ وبكاءٌ وشكرٌ للمسيح.

صلّينا الساعات التي لم نُكمِلها يومها مع الآباء في السجن... وبِتنا ليلتنا، لم نَنَم إلاّ قليلاً. إنّ اللقاء في مثل هذه الحالات قد يُلقِي ظِلاً خفيفًا على اللقاء مع المسيح في السماء، وفرح القدّيسين عندما يخرجون من ضيقة هذا العالم الز ائل، ويتمتّعون بأحضان القدّيسين، فرح اللقيا، وفرح الوجود مع الله، وفرح نهاية الشروالظلم وحروب الشياطين.

اليوم التالي:

في صباح اليوم التالي، ذهبتُ إلى البطريركيّة بحسب موعدي مع الأنبا أثناسيوس، لنذهب إلى السجن لكي أُحضِر باقي متعلّقاتي، التي كانت في الأمانات، ولم يكُن مُمكِنًا أن نعمل ذلك بالأمس، لأنّ الوقت كان قد أمسى.

صعدتُ في المبنى الذي يُقيم فيه الأنبا تيموثاوس (كان وقتها نائبًا للبابا بمدينة الإسكندرية منذ سنة ١٩٨٠) وكانت تربطني به محبّة فريدة... قرعتُ باب قلّايته.. خرج فرآني.. طوّقني بذراعيه بشدّة وقوّة، وظلّ يُقَبِّلني، ثم رفع يده وقال: أمام الله لم أفرح في حياتي مثلما فرحتُ في هذه الساعة.

قضينا وقتًا قليلاً، ثُمّ ركبتُ مع الأنبا أثناسيوس وذهبنا إلى المرج...

دخلت أجري نحو العنبر، وجدتُ الآباء جميعًا، كانوا يُصَلُّون الساعة السادسة. قبّلتهم بأشواق عجيبة، كنتُ كأنّي غِبتُ عنهم كثيرًا... ولكنّي شعرتُ بصِغَرِي إزاء محبّتهم التي أظهروها نحوي...

سألوا عن الأحوال، طمأَنْتهم أنّ كلّ شيء بخير، وأنّ المسيح تبارَكَ اسمُه يَجعل كلّ الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبّون الله.

ثم جاء عَمّ»علي» وقال: «ياللا يا أبونا لوقا...»

قلتُ له: «يا عم «علي» أنا لستُ زائرًا، أنا من أهل المكان..»
فابتسم الرجل، وودّعتهم جميعًا، واستودعتهم في يد الذي يحفظ حتى شعور رؤوسهم ويحصيها.

ذهبنا إلى الإسكندرية في اليوم الثاني. كانت غيبة طويلة حَقًّا.. كان شَوقي إلى الشعب مثل لهيب نار لا يُعَبَّر عنه... كلّهم أعزّاء عليَّ وأحبّاء إلى قلبي، وهذه المشاعر في مثل هذه الظروف لا تُوصَف، وصلنا إلى الإسكندرية مساء، في سيارة أحد أحبائي، الأستاذ رمسيس المنشاوي نيّح الله نفسه في فردوس النعيم. طلبتُ إليه أن يتوجّه إلى كنيستنا في سبورتنج...

كانت الأوامر ألاّ نُصَلِّي في كنائسنا... حتى الآباء الأساقفة بعد الإفراج، ما كانوا يذهبون إلى إيبارشيّاتهم...

قال لي والذين معنا في السيارة: بلاش الكنيسة...

قلتُ لهم: سأسجُد قدّام الهيكل وأُسَلِّم على أبونا بيشوي فقط... فهو وقت متأخِّر، وليس هناك لا عشية ولا قُدّاس... حاولوا مَعِي فأصرّيتُ على ذلك... فِعلاً ذهبنا إلى الكنيسة، سجدتُ أمام الهيكل المقدس وقبَّلتُ المذبح الإلهي، وسلّمت على أبونا بيشوي في مزارِهِ... كانت لحظات رهيبة، وأحاسيس يصعُب التعبير عنها...

ثمّ توجّهنا إلى منزلي... لا أعرِف كيف عرف الناس؟ جمهور كثير.. ولكنّهم كانوا في منتهى الهدوء، بعضهم اكتفَى أن يراني، وحتّى السلام باليد أو بالأحضان كانوا يُشفِقون عليَّ من ذلك،

أحاطَني الناس بحبٍّ غامر عجيب.

جميع الناس وبلا استثناء، حبّهم للمسيح شيء مُذهل.. كَم تشجّعوا وزاد إيمانهم. كانوا كسَيلٍ لا ينقطع، من الصباح الباكر في السابعة صباحًا وحتى الواحدة بعد نصف الليل، كأنّهم طابور من البشر، بمنتهى الهدوء جاءوا، بمنتهى الهدوء انصرَفوا. وبعضهم كان مِن على الباب ينصرف. آخرون وجدوا مكانًا في المنزل الذي ضاق عن أن يسعهم.

منذ الصباح الباكر تركنا البابَ مفتوحًا... لم نحتمل جرس الباب وأنّ أحدًا يفتح... كان الباب طوال النهار مفتوحًا، والداخل يدخُل دون أن يطرق الباب، أو يرنّ الجرس.

ظلّ الأمر على هذا الحال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وعندما كنتُ لأمرٍ قهريّ أترك المنزل كان الحاضرون فيه يُسجِّلون أسماء الأحبّاء، الذين جاءوا ولم يروني.

كان الوقتُ مبارَكًا؛ ففي الجلسات البسيطة التي كُنّا نجلس فيها مع الأحبّاء، كانت التعزية الإلهيّة في كلمة الحياة الأبدية، تنسكب علينا بفيض، ونعمة عظيمة كانت تشمل الجميع.

ما كُنّا نتكلّم عن السجن، أو ما جرى فيه، ولا عن أمور السياسة، أو الظروف التي عشناها، بل على العكس، ركّزنا ذهننا فيما هو للبنيان والحياة مع المسيح وحياة الصلاة.

مارمينا...

في يوم الأربعاء ٣١/ ٣ في الصباح الباكر، وجدتُ أحد أحبائي الدكتور ماهرميخائيل -دكتور العيون- بعربته، يقفُ أمام المنزل ويقول لي: إنّه «مبعوث من مارمينا لكي أذهب إلى الدير الآن». حاولتُ أن أعتذر له، لأنّي مرتبط بالناس الذين لا ينقطِع حضورهم كلّ النهار، ولكنّه قال أنا رسول، ولابد أن أعمل بحسب الأوامر.. قلتُ له: «أرجوك أعفِني، سأذهب في وقت آخَر.» قال «سيدنا أنبا مينا قال لي لا تأتي إلى الدير ثانية إلاّ وأبونا معاك...»

امتثلتُ إلى الطاعة، وتركنا بعضَ الشباب في المنزل وانطلقنا إلى الدير...

كان دخولنا الدير كمثل الدخول إلى السماء.. فرحٌ لا يُنطَق به وتعزية سمائيّة، في رائحة القدّيسين، والكنيسة التي رُسِمتُ فيها، وذكرياتي مع البابا كيرلس، وكلّ أحبّائي هناك.

لا يمكن أن أصِف الحبّ الذي أحاطني به أنبا مينا،حبّ صافي حقيقي، وروح طاهر نقي طفولي، وباقي الآباء الأحباء الرهبان، وكلّ الشعب هناك. صلّينا قُدّاسًا إلهيًّا في كنيسة العذراء في الدير، على المذبح الذي رُسِمتُ فيه كاهنًا... وكان هناك المعلّم إبراهيم -شماس البابا- وهو حبيبٌ عزيزٌ عليَّ... صلّينا بنعمةٍ وعزاء، وانطلقنا راجعين إلى الإسكندرية، بعدما تزوّدنا بهذا الزاد الإلهي. كان هذا أوّل قُدّاس أصلّيه بعد الإفراج، وكأن الله أراد به

أن يُجَدِّد عهده معي في ذات المكان، وكأنّه عهدٌ جديدٌ.

كم شكرتُ الله على هذه النعمة، وتضرّعتُ إليه أن يحفظ نعمته، ويستُر عليَّ كلّ أيّام غربتي على الأرض.

في دير القديس أنبا مقار:

بعد حوالي عشرة أيّام من خروجي من السجن، كنتُ مُسافرًا بسيارتي إلى القاهرة، فوقَفنا في طريقنا نأخذ بركة القديس أنبا مقار في ديره العامر، وبركة أبينا الروحيّ القمص متّى المسكين. فبعدما سجَدنا بالكنيسة، قابلَنا أبونا متّى بفرحٍ لا يُعَبَّر عنه، ودموعِ حبٍّ غزيرة، وحدّثنا بكلمة الحياة، واستأذنّا للانصراف، فسألَنا أبونا: مِش أنت صايم، قلتُ: نعم (كانت أيّام الصوم الكبير). قال: «ما تِحضروا قداس...» قلتُ: «القدّاس متأخّر، وأنا مضطَرّ للسفَر بدري.» قال: «لا. سنصلّي اليوم بدرِي».

ضرب جرس الكنيسة الساعة ١١ص،فاجتمع الآباء لصلاة القدّاس (علمتُ فيما بعد أنّ أبونا أصَرّ أن يصلِّي القدّاس قبل الميعاد المعتاد، لكي نحضِر القدّاس).

فرحنا جِدًّا، وحضرنا القدّاس الإلهي. تعزّينا بفرحٍ روحيّ، لأنّ الآباء في الدير يُصَلُّون بورعٍ شديد وتَقوَى. تناولنا من الأسرار الإلهيّة وعُدتُ إلى مكاني في الصفّ الأخير... جاءني أحد الآباء، لا أذكُر اسمه، وقال: «أبونا بيقول إنّك توزّع لقمة البركة»... ذُهِلتُ

وقلتُ كيف يكون ذلك، وأنا أصلاً لم أُصَلِّ القدّاس... هذا غير ممكن.

قال لي الأب: «نحن هنا نطيع فقط... عندما يقول أبونا لنا شيئًا، نحن نطيع بلا كلام.»

اضطررتُ لهذا الأمر الغريب. وقفتُ وكُلّي خجل، وشعور بحقارة نفسي... فمَن أنا يا ربّي؟

وتَقَدَّم الآباء من الرُّبِّيته إلى آخِر الآباء...

فلمّا انتهيتُ مِن هذا الأمر، كنتُ في غاية الكُسُوف، فلمّا خرجنا من الكنيسة تقابلنا مع أبونا، لأنّه كان معه أثناء القداس ميعاد مع أحد الوزراء...

فلمّا تكلمنا، بدأ يعتذر لي مِن عدم فهم الآباء.. فكان يجب أن أُصَلِّي أنا القداس.. فلمّا عَلِم أنّني لم أُصَلِّ لذلك قال أن أُوزّع البركة، وقال: كان لازم يفهموا إن أنا عملت القدّاس بدري علشان إيه..!

هو المسجون من أجل المسيح، مِش الكنيسة تعتبره ...

قلتُ له: يا أبي ليس كذلك الأمر.. وأنا صلّيت وتناولت، وشكرت المسيح جدًّا، وأنا لم أكُن مسجونًا من أجل يسوع، بل من أجل خطاياي وذنوبي.

أمنيات:

من بين الأمور التي حاولتُ بها استقراء الضمير عن مستقبل الكنيسة، صرتُ أسأل بعض الآباء والإخوة عن أمنيات قلبهم الحقيقيّة نحو الكنيسة.. قال لي أبونا يوسف أسعد، وقد لاحَظَ بعضَ الخِلافات والحساسيّات التي تحدُث بين الآباء، لاسيما في الأيام الأولى للمعيشة المشترَكة في عنبر واحد، إذ لم تَخلُ هذه الأيّام مِن كثيرمِن السلبيّات التي يَحسُن ألاّ ندخُل في تفاصيلها، فالأسباب التي دَعَتْ إليها تافِهة جدًّا وشكليّة جدًّا، وأبسَط المبادئ المسيحيّة تُنكِرها وتشمئزّ مِنها، وهي مؤشِّر خَطَر لنقص المحبة، ودليل ما بعده دليل للحياة بحسب الذات البشريّة البغيضة، وليس بحسب الروح الذي فيه إنكار الذّات وعلامة الاتضاع التي هي علامة المسيح ذاته...

قلتُ لأبينا يوسف أسعد: «ماذا تتمنّى للكنيسة بعد هذه المِحنة الحاضرة؟ أو كيف ترى أن تخرج الكنيسة مستفيدة من التجربة؟»

قال لي بنبرة حزينة: إن لم يَصِر في الكنيسة منهج المسيح نفسه، وروح المسيح، فنحن في أبأس حال.

قلتُ: «ماذا تقول بأكثر وضوح؟ قال لي: أين روح المسيح فينا... لكي يراه الناس في الخارج؟ بل أين روح المسيح فينا حتى يراه أولادنا في الداخل فلا يعثرون فينا؟» قلتُ: إنّك على حقّ.

قال: أتمنّى من كلّ قلبي أن يصير المسيح ظاهرًا في الكنيسة، على الاقلّ في طغمة الكهنوت.

أريد أن أرى المسيح الوديع.

أريد أن أرى مسيح المحبّة.

ولا أريد أن أسمع عن مسيح الوداعة، ومسيح المحبّة، فقط بالعظات والكتب.

أنّ العظات والكتب في القديم كانت مواهب متدفِّقة، أمّا اليوم فهي مجرّد ذكاء ومَلَكات، ولباقة في الكلام، ومعرِفة في الكتب.

لقد صرتُ أكرَه كثرة الكلام...حينما لا تكون ظاهرة في حياة الكاهن أو الأسقف.

وإن عدِمنا المحبّة الحقيقيّة، فماذا بقى لنا من مسيحيّتنا؟

المسيحيّة عندي هي حياة أراها، وليس كلامًا أسمعه.

بل هذا ما يطلبه أيّ مؤمن في الكنيسة، بل هذا قول بولس الرسول الذي قال لم آتِ إليكم بسموّ الكلام، أو بكلام حكمة إنسانيّة مُقنِع، بل ببرهان الروح والقوّة (١كو٢).

فبرهان الروح برهان عمليّ، وقوّة الله ليست نظريّة ولا كلام... هي قوّة.

والمحبّة باللسان ليست محبّة، بل نحب بالعمل والحقّ.

فإن اقتنَتْ الكنيسة هذه، صارت فيها علامات الروح ظاهِرة، وبرهان الروح حقًّا.

وما نفتقرُ إليه هذه الأيّام هو برهان الروح. لن يرتاح قلبي حتى أرى برهان الروح في المحبة ظاهرًا في الكنيسة، فلا خِصام ولا شقاق ولا تحزُّبات ولا كلام على الغير... بل حُبّ المسيح يجمع الكلّ، فنحبّ بعضنا بعضًا من قلب طاهر بشدّة (١بط١: ٢٢) ونلبس المحبة لبسًا، التي هي رباط الكمال المسيحي (كو٣: ١٤).

علاقة المحبة بين القمص تادرس يعقوب والقمص لوقا سيداروس.

القمص لوقا يقف أمام مكتبه في مدخل شقته.

بيتر، الأمريكي الذي كان في بيت القمص لوقا يوم القبض عليه، في يوم معموديته.

نيافة الأنبا بنيامين والقمص لوقا سيداروس مع زوجته تاسوني نادية ودكتور نبيل عطا الله يتناولون وجبة معًا بعد إطلاق سراحهم.

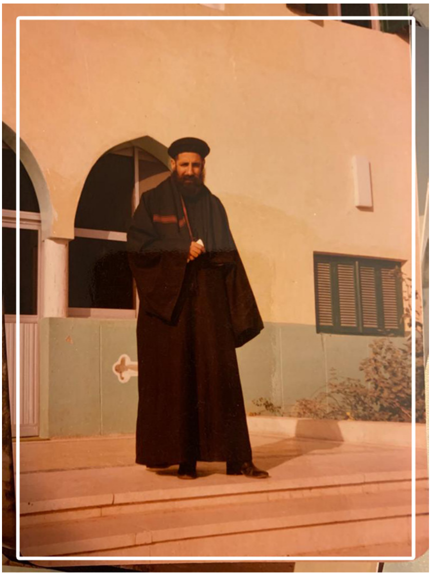

القمص لوقا في دير الأنبا بيشوي بعد اطلاق سراحه، في زيارة لقداسة البابا شنودة.

القمص لوقا والقمص صموئيل ثابت في زيارة لقداسة البابا شنودة في معتكفه بعد اطلاق سراحهما.

القمص بيشوي كامل محاط بأبنائه، القمص لوقا سيداروس، وأبونا أرسانيوس عزيز سري وأبونا بيشوي بشرى وأبونا شنودة دوس بطرس.

وبعد ٣٩ سنة. . .

يوم ٣ سبتمبر ٢٠٢٠

كانت صلاة الجناز لأبينا القمص لوقا سيداروس.

وبدلا من القيود، صارت الحرية.

وبدل السجن، تحرر من سجن الجسد .

والاهانة صارت أكاليل.

والتعب صار راحة أبدية ومجد .

لقد غلب! . . . لقد انتصر!

وسمع الصوت القائل له:

«مَنْ يَغْلِبْ يَرِثْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكُونُ لَهُ إِلهًا وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا» (رؤ ٢١:٧)

أكسيوس أكسيوسَ أكسيوس بنيوت لوقا بي هيغومينوس.

الفهرس

المقدمة	٥
الأربعاء ٢ سبتمبر ١٩٨١	٨
مُلابسات ليلة القبض عليّ	١١
وصف الزنزانة	٢٠
كيف نقضي الأيام؟	٢٦
التماجيد	٢٧
عيد النيروز : رأس السنة القبطية ١٦٩٨	٣٠
المعاملة من رجال الإدارة	٣١
نظام الفُسحة	٣٣
برنامج اليوم	٣٦
أحداث مؤلمة للنفس	٣٩
يوم ٦ أكتوبر	٤٣
المحاكمات	٤٧
الله يعمل في قلوب العاملين في السجن	٤٩
عم صبحي	٥٤
الانتقال إلى وادي النطرون	٥٥
زيارة مسئول كبير	٦٦
شهادة عجيبة	٦٨
شخصيات نادرة	٧٠

أحداث متفرّقة	٧٨
يوم ١٦ نوفمبر ١٩٨١	٨٥
في التحقيق	٨٨
زيارة جرجس من أسقفيّة الخدمات	٩١
الزيارات	٩٢
قداس عيد الميلاد	٩٥
قداسات وصلوات	٩٩
حول البابا كيرلس	١٠٠
مصطفى أمين	١٠٦
صُن صُن	١٠٨
أبونا تادرس	١١١
روح المَرَح	١١٤
الأستاذ الدكتور ميلاد حنّا	١١٧
ذكريات متنوّعة	١٢١
يوم الإفراج	١٣٠
مارمينا...	١٣٩
في دير القديس الأنبا مقار	١٤٠
أمنيات	١٤٢

ISBN 978-163684884-6
9 781636 848846